سوريتنا | السنة الثالثة | العدد (105) | 22 / 9 /2013
أسبوعية تصدر عن شباب سوري حر
تصدر من دمشق

www.souriatnapress.net
صفحتنا على فيس بوك:
www.facebook.com/souriatna
souriatna@gmail.com

مركز توثيق الانتهاكات في سوريا يناشد "اللجنة الدولية للصليب الأحمر" لكسر الحصار عن مخيم اليرموك والمعضمية

■ ملف الأخبار إعداد: زليخة سالم

ناشد مركز توثيق الانتهاكات في سوريا اللجنة الدولية للصليب الأحمر للعمل بشكل سريع لكسر الحصار على مخيم اليرموك ومدينة المعضمية وغيرها من المناطق الثائرة المحاصرة كالحجر الأسود والغوطة الشرقية، حيث تعيش تلك المناطق أوضاعاً إنسانية كارثية بسبب قلة الغذاء والدواء.

وجاء في تقرير أعده المركز استناداً إلى شهادات عدد من النشطاء في مخيم اليرموك، ومن بينهم الناشط أحمد السهلي، أبو ليث، تولد 1992، وعضو في المكتب الاعلامي الموحد في مخيم اليرموك الذي استشهد نتيجة القصف بصاروخ أرض - أرض على مخيم اليرموك قبل انتهاء التقرير، أن الحصار على مخيم اليرموك بدأ بتاريخ 26 - 12 - 2012 أو بعدما بات يعرف "بضربة الميغ" حيث استهدفت طائرات الميغ التابعة للنظام السوري العديد من الأماكن التي كانت تأوي العشرات من النازحين، مما أسفر عن سقوط العشرات ما بين شهداء ومصابين، وكان أغلب من سقط في تلك المجزرة من نازحي منطقة التضامن والحجر الأسود الذين كانوا قد هربوا من مناطقهم نتيجة قصف قوات النظام لها.

ومنذ ذلك الوقت يعيش المخيم ظروفاً يصعب تصديقها وسط حصار شامل أدى إلى فقدان معظم المواد الغذائية والطبية من المنطقة مع استمرار القصف اليومي المتواصل، مما أدى إلى نزوح عشرات الآلاف من سكان المخيم إلى خارجه، ويقدر عددهم بأكثر من 400 ألف نسمة معظمهم من نازحي المناطق الأخرى إضافة إلى عدد غير قليل من سكان المخيم نفسه.

واشتدت بعد ذلك قبضة النظام الأمنية وقصفه المركز على المخيم، وبدأ بنشر الحواجز على طول الطرق المؤدية إليه، ومنع أية مواد إغاثية أو طبية من الوصول إلى داخله، ولم يتأثر سكان المخيم بهذا المنع بشكل مباشر، ذلك أن المخيم كان يحتفظ بكميات لا بأس بها من مادة الطحين على سبيل المثال والعديد من المواد الغذائية الأخرى، وكان الحاجز العسكري التابع للجيش النظامي يمنع إدخال أكثر من "ربطة" خبز، وكان إدخال حتى ربطة الخبز حكراً على النساء والرجال المسنين لأنّ الحاجز كانت لديه قائمة كبيرة جداً بالأسماء المطلوبة والتي بقيت في المخيم ولم تنزح منه.

ولم تمرّ فترة طويلة حتى تمّ منع إدخال مادة الخبز بشكل نهائي في بداية شهر شباط 2013 وكان يُسمح فقط بادخال القليل من المواد الأساسية جداً من مثل القليل من مادة الرز أو السكر أو البقوليات، ونتيجة لذلك فقد ارتفعت الأسعار ضمن المخيم إلى أضعاف مضاعفة، وشهد الوضع الإنساني تدهوراً شديداً، كان لاحقاً سبباً رئيسياً في كارثة إنسانية يعيشها المخيم الآن".

مرّ الحصار على المخيم بعدة مراحل، فبعد أن كان هنالك بعض "التدقيق" من قبل الحاجز التابع للجيش السوري النظامي والذي وضعه النظام في نهاية شهر كانون الثاني 2012، أصبح الحصار أكثر صعوبة فبعد حوالي شهرين من وضع أول حاجز عسكري وبعد أن خضع الحاجز بشكل شبه كلي لشبيحة اللجان الشعبية التابعة لأحمد جبريل بدأ الحصار يشتدّ أكثر على المخيم، فقد تمّ منع إدخال المواد الغذائية إلا بكميات قليلة جداً، فمثلاً لم يكن يُسمح بإدخال أكثر من ربطة خبز واحدة للعائلة الواحدة وأكثر من نص كيلو من الخضروات مثل البندورة أو الخيار والبصل، ومنذ شهرين بالضبط أي في بداية تموز 2013 وتحديداً في 5 رمضان تمّ إغلاق المنطقة الجنوبية بشكل كامل وتمّ إغلاق جميع المداخل والمخارج عن المناطق الجنوبية جميعها وهي: ببيلا وبلدا وحجيرة والقدم وعسالي والتضامن والحجر الأسود والبويضة ومخيم الحسينية بالإضافة إلى مخيم اليرموك نفسه.

وأوضح المركز في تقريره أن مخيم اليرموك يعيش حصاراً منذ حوالي ثمانية أشهر، من قبل قوات النظام أولاً وشبيحة الجبهة الشعبية بقيادة أحمد جبريل ثانياً، حيث قاموا باغلاق جميع مداخل ومخارج مخيم اليرموك، وفي الشهرين الأخيرين بالتحديد تمّ منع دخول أي نوع من المواد الغذائية أو الطحين أو حتى المواد المعيشية البسيطة "أي مستلزمات الحياة"، كل هذه المعاناة تتم تحت سياسة قصف ممنهج واضحة من قبل قوات النظام حيث أنها تتبع سياسة تدمير للمخيم وخاصة عند استخدامه لنوع خاص من الصواريخ الحارقة، فعادة كانت القذائف تقوم بتدمير المنزل مثلاً دون حرق، أمّا القذائف التي يتم استخدامها مؤخراً فإنها تسبب الدمار بالإضافة لحرق المنزل مع ممتلكاته أيضاً، حيث استهدف 55 منزلاً إضافة إلى جوامع الحي بشكل منهجي ومستقصد.

واعتبر الحصار الذي تمّ فرضه على مخيم اليرموك من الناحية الطبية، من أشرس واقسى ما شهدته المناطق الثائرة، وخاصة من ناحية منع دخول الأطباء، حيث تمّ اعتقال العديد من الأطباء على الحواجز المؤدية إلى المخيم، وأيضاً تعرض العديد منهم للقتل والتعذيب على يد قوات النظام على يد تلك الحواجز نفسها، مشيراً إلى أن الوضع الطبي في المخيم أصلاً كان سيئاً حتى قبل الحصار وقبل ضربة الميغ، ولكن مع بدء الحصار والقصف العشوائي تدهور الوضع الطبي بشكل أكثر خطورة وخاصة بعد استهداف المشافي الرئيسية الموجودة في المخيم.

وبين التقرير أنه حالياً لا يوجد داخل مخيم اليرموك إلا طبيب واحد ومشفى واحد وهو مشفى فلسطين أمّا الطبيب فهو طالب في كلية الطب ولم ينه دراسته الجامعية حتى، وفيما يتعلق بالتجهيزات والمواد الطبية وخاصة فيما يتعلق بالمواد الإسعافية فإنها شبه معدومة فعلى سبيل المثال هنالك سيارة إسعاف واحدة غير مجهزة طبياً أبداً وهي عبارة عن سيارة "فان" وتحتوي على سرير لا غير، والمشفى الوحيد المتبقي في المخيم يعاني من نقص شديد وحاد في كافة التجهيزات والمواد الطبية الأساسية لعلاج الجرحى والمصابين مثل البلاستر والشاش وأكياس الدم..

وبعد انسحاب المراكز الطبية التابعة للأونروا من المخيم وجد العشرات من المصابين بالأمراض المزمنة أنفسهم في مواجهة الموت وخاصة: فقر الدم والتلاسيميا والضغط والسكري ومرضى القلب، وإضافة إلى ذلك انتشرت في الأيام الأخيرة ظاهرة انعدام الحليب عند الأمهات بسبب نقص التغذية عن الأم نفسها، وقد استقبل مشفى فلسطين أكثر من 20 حالة من هذا النوع خلال الأيام القليلة الماضية.

وفي المعضمية بدأ الحصار الخانق في 25 / 11 / 2012 بعد معركة داريا وبدأت مأساة هذه المدينة، وحاولت قوات النظام بناء ساتر ترابي من جهة البساتين على طول الجهة الغربية حتى يصعب على المدنيين الخروج وتأمين مستلزماتهم وضمان حصارهم بشكل فعلي حيث يوجد الآن ما يقارب خمسة آلاف عائلة أي 12 ألف نسمة مابين أطفال وشيوخ ونساء رغم أن تعداد سكان المدينة كان مابين 30 إلى 32 ألف نسمة.

وجاء في التقرير أن المعضمية هي منطقة زراعية تعتمد على ما تنتجه من محاصيل الأشجار المثمرة وأشجار الزيتون ولكن عند بداية الحصار قام الأهالي باستهلاك جميع المؤن التي كانوا يحتفظون بها حتى بداية الشهر الثالث من هذا العام الذي يعد بداية الحصار الحقيقي حيث نفذت جميع هذه المؤن مما دفع بعض الأهالي لزراعة ما تبقى من البذور بجانب البيوت أملاً منهم أن يكون مصدراً لغذائهم ولكن قلة المياه منعت من نمو هذه المحاصيل الصغيرة.

وتعود قلة المياه لعدة أسباب منها أن النظام قام بقطع المياه عن المدينة بالإضافة إلى أن قذائف الفوذليكا أصابت عدداً كبيراً من خزانات المياه المتواجدة على أسطح البنايات رغم محاولة بعض السكان نقل هذه الخزانات إلى الطوابق السفلية لحمايتها إلا أن هذا لم يمنع نفاذ المياه مع مرور الوقت وحتى أن قوات النظام قامت بضرب الخزانات العامة واستهدفت مؤخراً وحدة المياه الموجودة في المدينة، ويوماً بعد يوم لم يبق لدى الأهالي سوى أوراق الأشجار كمصدر للغذاء – هذا حقيقة وليس مجرد كلام - فلا يوجد طحين أو خبز أو أي شيء يؤكل حتى الأطفال ليس لديهم الحليب الذي يعد المصدر الوحيد للتغذية بالنسبة لهم. وهناك صعوبة في الاعتماد على حليب الأمهات بسبب سوء تغذيتهن وهذه مأساة حقيقية حين يكون هناك أطفالاً قد يفقدون حياتهم أمام مرأى الأعين فقط من الجوع.

لايوجد في المدينة سوى مشفى ميداني واحد يقوم بإسعاف المصابين نتيجة القصف المستمر والعنيف، يوجد فيه الآن نساء وأطفال يتم معالجة إصاباتهم جراء تعرضهم لشظايا القصف. ولكن قلة الغذاء حالت دون شفائهم بشكل تام، بالإضافة إلى النقص الحاد بالأدوية كالحبوب المسكنة وأدوية الالتهاب والمستلزمات الطبية والإسعافية، ومؤخراً استخدم ما تبقى من الأكفان عوضاً عن الشاش.

وقام الأطباء الموجودون في المدينة بدورات تدريبية للمتطوعين خاصة بالإسعافات الأولية ولكن بدون أي مستلزمات تستطيع أن تساعد الجرحى والمصابين بسوء التغذية، والكهرباء انقطعت بشكل كامل عن المدينة منذ شهر تشرين الثاني 2012 وأصبح الاعتماد فقط على المولدات المعتمدة بدورها على المحروقات التي باتت تنفذ وخصوصاً أن الاعتماد كان فقط على المواد الموجودة عند السكان.

وأهدى مركز توثيق الانتهاكات في سوريا التقرير، إلى الشهيد أحمد السهلي ومن سبقوه من نشطاء مخيم اليرموك.

منظمات دولية: عدم ملاحقة مستخدمي الكيمياوي بسوريا إهانة للقتلى

جددت منظمتا العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش دعوة الأمم المتحدة لإحالة ملف انتهاكات حقوق الإنسان في سوريا إلى المحكمة الجنائية الدولية، وشددتا على وجوب عدم بقاء جرائم الحرب من دون عقاب.

وقالت منظمة العفو في بيان لها غداة صدور تقرير مفتشي الأمم المتحدة الذي أكد استخدام أسلحة كيمياوية في الهجوم قرب دمشق في 21 آب، أن جرائم ترتكب يومياً في سوريا، وأن كشف هوية المسؤولين عن هذه الجرائم هو أمر منتظر منذ وقت طويل.

وذكرت هيومن رايتس ووتش في بيان مماثل، أن النظام ومعارضيه متهمون على حد سواء بارتكاب انتهاكات خلال الأزمة التي اندلعت في آذار 2011، وأن إحالة الملف إلى المحكمة الجنائية الدولية ستوجه رسالة قوية إلى جميع الأطراف مفادها أنه لن يتم القبول بالجرائم الخطيرة التي ترتكب منتهكة القانون الدولي، بما فيها جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية

ورأى ريتشارد ديكر مدير دائرة القضاء الدولي في هيومن رايتس ووتش أن إحالة الملف السوري إلى المحكمة الجنائية الدولية هو أمر "أساسي لإحقاق العدالة، ووضع الأسلحة الكيمياوية تحت الرقابة وعدم ملاحقة من استخدموها هو إهانة للمدنيين الذين قتلوا".

من جانب آخر أكد عدد من مسؤولي حقوق الإنسان بالأمم المتحدة ضرورة ألا يشتت التركيز على الأسلحة الكيميائية في سوريا والاهتمام بالانتهاكات التي تسببت فيها أسلحة تقليدية أدت إلى مقتل مائة ألف شخص منذ بداية الأزمة.

وطلبت مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان من مجلس الأمن الدولي تحويل الوضع في سوريا إلى المحكمة الجنائية الدولية لضمان المساءلة عن ارتكاب الجرائم.

وأكد إيفان سيمونوفيتش مساعد الأمين العام لشؤون حقوق الإنسان في مؤتمر صحفي لتقييم التقدم في مجال حقوق الإنسان منذ صدور إعلان وبرنامج عمل فيينا قبل عشرين عاماً على أهمية ذلك الطلب ولكنه قال أن التحويل إلى المحكمة ليس العنصر الوحيد المهم بالنسبة للمسؤولين عن حقوق الإنسان.

وقال "إن المفوضة السامية وإنا طلبنا سابقاً، إحالة الوضع في سوريا إلى المحكمة الجنائية الدولية، ولكن ليس هذا هو الشيء الوحيد الذي نريده في قرار المجلس، ما يقلقنا الآن هو أن المناقشات تركز فقط على الأسلحة الكيميائية، ولكننا جميعا نعلم أن أكثر من مائة ألف شخص كانوا ضحايا الأسلحة التقليدية. إننا أيضاً قلقون بشأن تدفق القوات الأجنبية والأسلحة إلى البلاد بما يؤدي إلى تصاعد عدد الضحايا ومعاناة حقوق الإنسان. "

وأضاف: "إن الشيء اللافت بوجه خاص هو الاستهداف المتعمد للمنشآت الطبية، وهو شيء آمل أن تتم معالجته أيضاً، إنه أمر موثق لدينا، وأعتقد أيضاً أن هناك ما يمكن أن نصفه بالزخم الإيجابي عندما نجد استعداداً للخضوع إلى نوع من التفتيش فيما يتعلق بالأسلحة الكيميائية ونزع السلاح، ويمكن تطبيق ذلك فيما يتعلق بمراقبة حقوق الإنسان.

ما نود أن نراه أيضاً هو بدء الحوار بين الطرفين في سوريا. ما نفتقده هو إجراء الحوار حول القضايا الإنسانية، الحوار حول سبل منع المعاناة الإنسانية وحماية السكان وكيفية ضمان وصول مواد الإغاثة ومن يقدمونها، ولكن أيضاً الحوار حول كيفية تجنب استهداف المنشآت الطبية وحل قضية الأشخاص المفقودين".

وكانت لجنة مجلس حقوق الإنسان للتحقيق في الانتهاكات في سورية قد حذرت من الخطر المتصاعد من الاستهداف المتعمد للعاملين في المجال الصحي وسيارات الإسعاف ومنع الرعاية الصحية عن المرضى والجرحى.

وقالت اللجنة في أحدث تقاريرها أن القوات الحكومية والميليشيات الموالية لها تتبع سياسة منع الرعاية الصحية عن الموجودين في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة، وإن الأدلة تشير أيضاً إلى أن بعض الجماعات المسلحة المناهضة للحكومة قد هاجمت المستشفيات في بعض المناطق.

أوجاع وطن

زيادة تدفق اللاجئين السوريين إلى بلغاريا رغم الظروف الصعبة التي يواجهونها فيها

شهد شهر آب الماضي ارتفاعاً حاداً في تدفق اللاجئين السوريين إلى بلغاريا حيث وصل إلى ما يقارب 50 شخصاً من القادمين الجدد يومياً مقارنة بأربعة أشخاص في الشهر المماثل من العام الماضي.

وذكرت المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أن بلغاريا تلقت حتى الآن هذا العام نحو 3.000 طلب للجوء، خاصة من الشرق الأوسط وإفريقيا. وهو ما يمثل ثلاثة أضعاف المتوسط السنوي خلال العقد الماضي.

وقالت ميليسا فليمنغ كبيرة المتحدثين باسم المفوضية يوم الثلاثاء الماضي «رغم أن الأعداد الإجمالية قليلة مقارنة ببعض الدول الأوروبية الأخرى، إلا أن نظام اللجوء في بلغاريا غير قادر على استيعاب القادمين الجدد لأن مراكز الإقامة الثلاثة الموجودة التي تقوم الحكومة بتشغيلها مكتظة والأوضاع فيها غير آمنة وقاسية.

وأضافت: أن المفوضية رحبت بضمانات من الحكومة البلغارية بسرعة العمل لإصلاح الظروف الصعبة التي يمر بها السوريون وغيرهم من طالبي اللجوء. والتقت الممثلة الإقليمية للمفوضية بوسط أوروبا، مونتسيرات فيكساس فيهي، رئيس الوزراء بلامين أوريشارسكي ومسؤولين بارزين آخرين يوم الجمعة الماضية لمناقشة الحاجة لوجود مرافق جديدة للإقامة للتخفيف من وطأة الاكتظاظ ولإطلاق سراح طالبي اللجوء من الاحتجاز.

ويعيش اللاجئون في المراكز التي تديرها المفوضية والتابعة للحكومة البلغارية أوضاعاً مزرية حيث ينام الأشخاص في الممرات ويطهون على مواقد رديئة داخل مهاجع مكتظة.

وقال رولاند ويل، ممثل المفوضية في بلغاريا: «تحولت جميع المساحات المتاحة إلى أماكن للمبيت - بدءاً من غرف التلفزيون والانترنت ومساحات رعاية الأطفال. ولا تكفي مرافق الاستحمام ودورات المياه للتكيف مع الوتيرة الجديدة للقادمين». وأضاف: أن ما يصل إلى 100 شخص يتقاسمون حماماً واحداً بينما التعليم والأنشطة الترفيهية محدودة، كما أن عدة مئات من الأطفال متغيبون تماماً عن المدرسة.

ويؤدي بطء إجراءات اللجوء إلى تفاقم الوضع، إذ يقيم الأشخاص بصورة نمطية في مراكز للإقامة لمدة عام فيما يجري تقييم طلبات اللجوء الخاصة بهم، وذلك رغم أن القانون ينص على وجوب اتخاذ قرار بشأن تلك الطلبات في غضون ستة أشهر.

وأشار ممثل المفوضية إلى أن «الحكومة بحاجة إلى إيجاد أماكن إقامة بديلة وجديدة في أقرب وقت ممكن، حتى وإن كان بصورة مؤقتة، من أجل تخفيف الضغط على المراكز القائمة والتمكن من إطلاق سراح طالبي اللجوء المحتجزين في الوقت الحالي».

اعتمدت السلطات البلغارية حتى الآن على مركزين اثنين للاحتجاز مصممين ليقيم فيهما المهاجرون غير النظاميين الذين ينتظرون الترحيل. وفي ليوبيميتس، التي تقع بالقرب من الحدود التركية، وبوسمانتسي الواقعة على أطراف صوفيا، يظل طالبو اللجوء خلف القضبان لما يصل إلى ثلاثة أشهر في انتظار نقلهم من قبل السلطات إلى مركز مفتوح. وتستضيف مراكز الاحتجاز تلك أعداداً أكبر بكثير من طاقتها.

وعرضت المفوضية زيادة المساعدات التقنية لبلغاريا على شكل تدريب ودعم في جميع مراحل عملية اللجوء بدءاً من التسجيل وحتى اتخاذ القرار بشأن طلبات اللجوء.

وكانت بلغاريا قد استقبلت نحو 2.000 سوري منذ عامين ونصف العام. وهناك ما يقرب من 41.000 سوري طلبوا اللجوء خلال الفترة نفسها في أنحاء الاتحاد الأوروبي.

هيومن رايتس ووتش تحمّل النظام السوري مسؤولية الهجمات بالأسلحة الكيمياوية على الغوطتين الشرقية والغربية

حمّلت منظمة هيومن رايتس ووتش النظام السوري مسؤولية الهجمات بالأسلحة الكيمياوية على الغوطتين الشرقية والغربية في 21 آب الماضي.

وقالت: يظهر بقوة من الأدلة التي فحصتها المنظمة أن الهجمات بالأسلحة الكيماوية هي من تنفيذ القوات النظامية مستندة بذلك على نطاق الهجمات الواسع، إذ استخدمت فيه ما لا يقل عن 12 صاروخ أرض أرض في منطقتين متباعدتين في ريف دمشق، المسافة بينهما 16 كيلومتراً، وتحيط بهما مواقع عسكرية سورية حكومية مهمة، وأحد أنواع الصواريخ المستخدمة في الهجوم، وهو نظام الصواريخ 330 ملم - يُرجح أنه سوري الصنع، ويبدو أنه استخدم في عدد من الهجمات الكيماوية المزعومة وتم تصويره مرتين على الأقل على يد القوات النظامية، والثاني هو صاروخ 140 ملم سوفيتي الصنع يمكنه حمل غاز سارين، وهو مذكور ضمن الأسلحة المعروف أنها في مخزون الحكومة السورية، ولم تظهر تقارير مطلقاً عن حيازة المعارضة للصاروخين، ولا توجد تغطية أو أدلة على أن القوات المعارضة لديها منصات صواريخ تُركب على متن عربات، وهو النوع المطلوب لإطلاق هذه الصواريخ.

كما استندت المنظمة إلى أن هجمات 21 آب هي ضربة عسكرية معقدة، تتطلب كميات كبيرة من غاز الأعصاب (كل صاروخ 330 ملم يُقدر أنه يحتوي على 50 إلى 60 لترا من غاز الأعصاب)، وإجراءات متخصصة في عملية تعبئة الرؤوس الحربية بغاز الأعصاب، ومنصات متخصصة لإطلاق الصواريخ.

وخلصت هيومن رايتس ووتش في تحقيقاتها التي أوردتها في تقرير مفصل استناداً إلى شهادات الشهود بشأن الهجمات بالصواريخ، والمعلومات الخاصة بالمصادر المُحتملة للهجمات، والمخلفات المادية لنظم السلاح المستخدمة، والأعراض الطبية التي ظهرت على ضحايا الهجمات حسبما وثقها عاملون بالمجال الطبي، إلى أن من المرجح أن هجمات 21 آب قد تمت بأسلحة كيماوية، باستخدام نظام صواريخ 330 ملم أرض أرض، يُرجح أن يكون إنتاجاً سورياً، ونظام صواريخ 140 ملم من الحقبة السوفيتية، وأن الصواريخ المذكورة استخدمت في توصيل غاز أعصاب. يظهر من الأدلة أن غاز الأعصاب المستخدم هو في الأغلب غاز سارين أو غاز أعصاب مماثل على درجة سلاح، حيث ذكر طبيبان محليان للمنظمة أن ضحايا الهجمات ظهرت عليهم جميعاً أعراض منها الاختناق، وضيق التنفس وعدم انتظامه، والتشنج اللاإرادي للعضلات، والغثيان، وتكون زبد على الفم، وسيلان السوائل من الأنف والعينين، والانتفاض والدوار وصعوبة الرؤية، واحمرار الأعين واحتقانها وضيق شديد في الحدقتين.

وجاء في التقرير: يظهر بقوة من الأدلة الخاصة بنوع الصواريخ ومنصات الإطلاق المستخدمة في هذه الهجمات أن هذه نظم أسلحة معروفة وبشكل موثق بأن القوات المسلحة السورية النظامية هي وحدها التي تملكها وسبق لها استخدامها، ولم توثق هيومن رايتس ووتش أو خبراء الأسلحة الذين يراقبون استخدام الأسلحة في سوريا حيازة قوات المعارضة السورية لصواريخ 140 ملم أو صواريخ 330 ملم من المستخدمة في الهجوم، أو المنصات اللازمة لإطلاق هذه الصواريخ.

أنكرت الحكومة السورية مسؤوليتها عن الهجوم، ولامت جماعات المعارضة لكن دون عرض أدلة تدعم مزاعمها. وترى هيومن رايتس ووتش بناء على الأدلة المتوفرة، أن القوات النظامية السورية تكاد

وبشكل مؤكد تكون المسؤولة عن هجمات 21 آب، وأن غاز الأعصاب على درجة السلاح قد استخدم أثناء الهجوم بالاستعانة بنظم إطلاق صواريخ مصممة خصيصاً لاستيعاب غاز الأعصاب. إن نطاق الهجمتين والتنسيق الظاهر فيهما، ضد معاقل للمعارضة، ووجود مواقع إطلاق صواريخ محتملة تسيطر عليها الحكومة في مرمى الأهداف، ونسق الاستخدام المزعوم في الآونة الأخيرة في حالات أخرى للهجمات ضد معاقل للمعارضة باستخدام نظام صواريخ 330 ملم نفسه، والحيازة الموثقة لنظم صواريخ 140 ملم و330 ملم المصممة خصيصاً لإطلاق أسلحة كيمائية في ترسانة السلاح الحكومية؛ هي كلها دلائل تشير إلى مسؤولية الحكومة السورية عن الهجمات.

وتوصلت هيومن رايتس ووتش من تحقيقاتها في المزاعم الأخرى، بأن قوات المعارضة هي المسؤولة عن الهجمات، إلى أن هذه المزاعم تفتقر إلى المصداقية وأنها غير متسقة مع الأدلة التي تم العثور عليها في مسرح الأحداث، والمزاعم بأن وفيات 21 آب سببها انفجار عرضي سببه سوء تعامل قوات المعارضة مع أسلحة كيماوية في حيازتها لا يتسق مع عدد الوفيات الكبير في موقعين المسافة بينهما 16 كيلومتراً، ومع توثيق هجمات الصواريخ بالمواقع المستهدفة ذلك الصباح، كما ورد في شهادات الشهود، ومع حجم الدمار الظاهر على الصواريخ نفسها، والحُفر المتخلفة في الأرض عن انفجارها لحظة الارتطام بالأرض.

وأوضحت المنظمة أنها طلبت من الدكتور كيث ب. وارد - الخبير صاحب الخبرة الواسعة في اكتشاف والتعرف على آثار الأسلحة الكيماوية الحربية - أن يراجع الدلائل الطبية التي كشفت عنها مقاطع فيديو لضحايا يخضعون للعلاج في المستشفيات جراء الهجمات، وأن يراجع الأعراض التي ظهرت على الضحايا ووصفها عاملون بالمجال الطبي ممن قاموا بعلاجهم، والأعراض الطبية التي ظهرت على العاملين بالمجال الطبي بعد أن تعاملوا مع الضحايا.

كما استخدمت بيانات نظام الـ «جي. بي. إس.» الجغرافي وحللت صور القمر الصناعي لوضع خريطة بالمواقع الدقيقة للهجمات، والمواقع الدقيقة لارتطام ثمانية من الصواريخ 330 ملم بالأرض في الغوطة الشرقية.

واستعانت أثناء إجراء بحوث التقرير بالخبرة المستفيضة لقسم «الأسلحة وحقوق الإنسان» في المنظمة، في مراقبة الأسلحة والتعرف عليها، بما في ذلك الأسلحة الكيماوية، وحصلت على مساعدات من خبراء أسلحة وكذلك من واقع تحقيقات مستقلة أجراها أفراد آخرون دأبوا على مراقبة استخدام الأسلحة في سوريا عن كثب ومنهم المدون المستقل نيك جينزن - جونز صاحب مدونة «The Rogue Adventurer» والمدون إليوت هيغنز صاحب مدونة «Brown Moses» وقد جمع الاثنان وحللا صوراً ومقاطع فيديو للهجمات.

وأورد التقرير تفاصيل الهجوم وأماكنه وعدد الصواريخ المستخدمة وأنواعها وشهادات الناجين والأطباء الذين عالجوا الإصابات الناجمة عنه والأعراض التي ظهرت على الضحايا والمصابين.

وقال: راقبت هيومن رايتس ووتش عن كثب أنواع الذخائر والأسلحة المستخدمة في سوريا، وغطت بشكل موسع الاستخدام غير القانوني للأسلحة من قبل القوات النظامية السورية، بما في ذلك قذائف الهاون 240 ملم الثقيلة التي ضربت مناطق مأهولة بالمدنيين، والألغام المضادة للأفراد، والقنابل الملقاة جواً بشكل عشوائي، وست أنواع على الأقل من الذخائر العنقودية، وأسلحة محرقة استخدمت ضد المدنيين جميعاً، ومقذوفات صاروخية عشوائية لا تميز بين مدنيين ومقاتلين بحسب طبيعتها غير أن الهجوم على المعضمية في 21 آب يمثل الظهور المعروف الأول للصاروخ 140 ملم، الذي لم يوثق استخدامه من قبل، ولا تعرف بأية معلومات تشير إلى حيازة قوات المعارضة للصاروخ 140 ملم، أو نظام إطلاقه.

كما وثقت المنظمة استخدام ما يبدو أنها صواريخ أرض أرض 330 ملم في زملكا بالغوطة الشرقية في 21 آب، ولم نعثر على أدلة على استخدام أي نظام صواريخ 140 ملم في هجوم المعضمية بالغوطة الشرقية.

ولم تصف أي من شهادات الشهود أثر ارتطام الصواريخ، ولم يتبين من صور مخلفات الصواريخ أو من التقارير عن الإصابات اللاحقة بالناس في المكان، أن الهجوم كان بحمولة شديدة الانفجار أو حمولة محرقة للصواريخ، ولا توجد آثار إصابات رضية على أي من الضحايا أو حفر عميقة للارتطام بمكان ارتطام الصواريخ. كانت حمولات الصواريخ شديدة الانفجار لتؤدي إلى إصابات بدنية جسيمة

بالضحايا وكانت لتخلف حفر انفجار كبيرة، في حين أن الأسلحة المحرقة كان من شأنها أن تؤدي لإصابات بحروق وتخلف ورائها ندبة حرق مميزة حيث ارتطم الصاروخ. بناء على عدم توفر أدلة على وقوع هجوم بحمولات شديدة الانفجار أو محرقة، ومن واقع الأعراض على الضحايا وكونها متسقة مع آثار الإصابات جراء الهجوم الكيماوي، ترى هيومن رايتس ووتش أن الصواريخ 330 ملم التي تم العثور عليها في الموقع قد استخدمت في الهجوم الكيماوي المزعوم.

ويبدو أن الصاروخ أرض أرض 330 ملم المرتبط بهجوم 21 آب على الغوطة الشرقية هو من نوع غير مدرج في المواد المرجعية المتخصصة والدولية منزوعة السرية، إنه نوع من الصواريخ لم يتم توثيقه قبل اندلاع الأزمة، رغم أنه تم توثيقه في عدد من الهجمات الأخرى على معاقل للمعارضة في الشهور السابقة على الغوطة الشرقية، بما في ذلك هجوم واحد على الأقل زعم خلالها نشطاء المعارضة أن الحكومة نفذت هجوماً مزعوماً بالأسلحة الكيماوية.

تحصلت هيومن رايتس ووتش وفق التقرير على قياسات دقيقة لأبعاد الرأس الحربية للصاروخ من ناشط محلي من الغوطة الشرقية، وتوصلت إلى أن الحجم المقدر لغاز الأعصاب داخل الرؤوس الحربية يبلغ ما بين 50 إلى 60 لتراً، مقارنة بـ 2. 2 لترا في الرأس الحربية المصممة للصواريخ 140 ملم. قبل كل هجوم، يجب ملء الرأس الحربية للصاروخ 330 ملم بهذه الكمية من غاز الأعصاب، 50 إلى 60 لتراً، وهي عملية خطيرة تُجرى عادة على يد فريق متخصص يرتدي معدات واقية لمنع حدوث انفجار للمواد الكيماوية، ولا تعرف هيومن رايتس ووتش أية معلومات بحيازة قوات المعارضة بكميات الغاز الكيماوي اللازم لضرب هذه الصواريخ، أو إن كانت لديها الخبرات اللازمة لتعبئة الرؤوس دون التعرض بطريق الخطأ لغاز الأعصاب القاتل.

باستخدام القياسات والصور عالية الجودة التي حصلنا عليها من ناشط الغوطة الشرقية.

وتمكنت المنظمة من وضع صورة عن خصائص الصاروخ 330 ملم، سمحت القياسات التفصيلية والصور عالية الجودة التي قدمها مباشرة ناشط في الغوطة الشرقية لـ هيومن رايتس ووتش بالوصول إلى نصف قطر الصاروخ، ووجدت أنه يماثل تقريباً قياس الصاروخ 330 ملم، وهذه النقطة مهمة لأن هذه الأبعاد المذكورة قريبة من منصات الصواريخ الإيرانية فلق - 2 333 ملم، وقريبة من منتجات أخرى قريبة ومشتقة من هذه المنصة. هناك اعتقاد بأن إيران هي الدولة الوحيدة في العالم التي تنتج منصات صواريخ من فئة 333 ملم. ولقد ظهرت مقاطع فيديو لاستخدام القوات السورية نظام الإطلاق فلق - 2 في إطلاق ما يبدو أنها نسخ من الصواريخ 330 ملم، رغم أن المنصات التي تظهر في الفيديو مصورة أثناء النهار ومن ثم فلا صلة لها بهجمة 21 آب الليلية. تصميم الصاروخ ليس إيروديناميكي وفيه آلية تثبيت دوارة موضوعة فوق طرفه. التصميم غير الإيروديناميكي للصاروخ يشير إلى أن نطاق الصاروخ قصير نسبياً ولا يمكن تصويبه بدقة.

الاتساق في تصميم هذه الصواريخ يشير إلى أنها مصنوعة محلياً، وإن كان إنتاجها صناعياً، ويبدو أنها مصممة للإطلاق بمنصات إيرانية 333 ملم أو مشتقاتها. في حين لا يمكن لـ هيومن رايتس ووتش التأكد من مكان تصنيع الصواريخ، فإن تصميمها الأساسي وحجمها الفريد المطابقان لنظام منصات الصواريخ الإيرانية يوحي بأنها صناعة سورية. إنتاج سلاح مصمم خصيصاً لإطلاق أسلحة كيماوية هو خرق لاتفاقية الأسلحة الكيماوية لعام 1993 وهناك خمس دول فقط في العالم - سوريا بينها - ليست طرفاً فيها.

في حين أنه يبدو من هجمات في مناطق أخرى وجود نسخة منفصلة للصاروخ، ذات رأس شديدة

الانفجار، فإن هناك ثلاثة اختلافات في التصميم يبدو أنها تميّز نوع الصواريخ المستخدم في إطلاق السلاح الكيماوي عن النوع شديد الانفجار: يظهر من مقاطع الفيديو والصور للأسلحة المستخدمة في الهجمات بسوريا أن نسخة السلاح الكيماوي فيها سطام إضافي أو منفذ إضافي لدى نقطة التحميل تستخدم في ملء حاوية رأس الصاروخ بالسلاح الكيماوي قبل الإطلاق، والنوع شديد الانفجار يزيد طوله بنحو 400 ملم على الأقل، والنوع المستخدم في السلاح الكيماوي يبدو أن الأرقام مكتوبة عليه باللون الأحمر (هناك صاروخ موثق رقمه 900، مما يوحي بإنتاج عدد كبير من الصواريخ من هذا النوع)، في حين أن صور النسخة شديدة الانفجار تُظهر أن الأرقام على الصاروخ مكتوبة بالأسود، ربما لتيسير التعرف على النوع. جميع مخلفات الصاروخ 330 ملم التي تعرفت عليها المنظمة في هجوم زملكا بالغوطة الشرقية يُشتبه في أنها من نسخة الصاروخ الكيماوية، وعليها أرقام حمراء، ورأس أقصر، وسطام تعبئة إضافي.

الأهم، أن تصميم قسم الحمولة في الصواريخ التي تم العثور عليها في مسرح الأحداث بالغوطة الشرقية في الهجوم يشير بقوة إلى أن الصاروخ يستوعب أسلحة كيماوية، وربما هو مصمم خصيصاً لها. نقطة حمولة الصاروخ قوامها حاوية كبيرة رفيعة الجدار، قادرة على حمل 50 إلى 60 لتراً من السلاح الكيماوي، يُعبأ في نقطة الحمولة من خلال السطام المذكور، وقناة صغيرة مركزية في مقدمتها في صدارة الرأس حمولة انفجار صغيرة، يؤدي انفجارها إلى تمزق الحاوية رفيعة الجدار وإلى انتشار المادة الكيماوية في الحاوية على شكل أبخرة.

لا يستبعد تحليلنا احتمال وجود نظم إطلاق أسلحة إضافية استخدمت في الغوطة الشرقية والغوطة الغربية لم يتم التعرف عليها بعد أو تحليلها. لكن الصاروخين اللذين حللتهما هيومن رايتس ووتش هما نظم الصواريخ الوحيدة المعروف استخدامها في هذه الهجمات، طبقاً لنشطاء محليين فتشوا الأماكن المتأثرة بتأني.

التمست هيومن رايتس ووتش المشورة الفنية من د. كيث ب وارد، وهو خبير بارز في التعرف على آثار المواد الحربية الكيماوية، وقد راجع تقارير من مصادر أساسية وثانوية من السكان المحليين، وراجع الأعراض المرضية التي وصفها الأطباء، وعدداً كبيراً من مقاطع الفيديو التي التقطت للضحايا في هجوم 21 آب، حيث أظهرت مقاطع الفيديو أن عدداً من الضحايا الأصغر ظهرت عليهم أعراض زرقة الوجه، لا سيما حول العينين والفم، وهو ما يتسق مع أعراض الاختناق أو الغرق. الاختناق سببه إما الإفراط في إفراز المخاط والسوائل الرئوية ومجاري التنفس، أو بسبب دمار جزء من النظام العصبي يدعم التنفس، أو للسببين. أغلب الضحايا البالغين في مقاطع الفيديو ظهرت عليهم بوادر الإفرازات المفرطة للمخاط والسوائل من الفم والأنف. ظهر على عدد من المرضى في مقاطع الفيديو تشنجات عضلية لإرادية. وكان من المهم غياب أي إصابات رضّية أو نزيف للدماء.

تتسق هذه الملاحظات مع تقارير الشهود والأطباء ومنظمة المساعدات الدولية أطباء بلا حدود. كما أن الأعراض الطبية التي شوهدت في مقاطع الفيديو وأعراض الضحايا التي أبلغ بها آخرون لا تتسق مع الإصابات جراء التعرض لموجات انفجارية، أو شظايا أو أسلحة محرقة. ولا تتسق مع كونها جراء التعرض لعوامل اختناق / تنفسية، أو عوامل مسيلة للدموع، أو معجزة، أو عوامل تصيب بالتهابات وتقرحات، أو عوامل كيماوية خانقة / تصيب مجرى الدم. إنما هناك مؤشر قوي على أن الضحايا تعرضوا لمادة كيماوية سمية فسفاتية عضوية (غاز أعصاب) تعمل على تثبيط الأنزيمات اللازمة للأداء السليم للنظام العصبي، هذا الصنف من الكيماويات يشمل مواد أقل سمية تستخدم في إبادة الحشرات مثل المالاثيون، لكن درجة جسامة ومجال انتشار والأعراض الطبية مقترنة بعدد القتلى الكبير يشير إلى أن الهجوم تم بعامل كيماوي أشد سمية هو غاز أعصاب حربي.

يُعتقد أن لدى سوريا نوعين على الأقل من غاز الأعصاب، هما سارين و«في إكس»، بكميات كبيرة غاز السارين سام لكنه غير دائم الأثر. التعرض له يكون بالاستنشاق عادة، وسرعان ما يتحلل الغاز ويتلاشى في الهواء. غاز في إكس يدوم أكثر، وهو أكثر سمية بخمس إلى عشر مرات عن غاز السارين. التعرض لغاز في إكس والموت به يكون بسبب التنفس أو انكشاف الجلد أو العينين أو الامتصاص المخاطي. هناك تقارير عن تمكن أشخاص من زيارة مواقع الهجمات بعد ساعات قليلة من الهجوم وتعاملهم مع مخلفات الصواريخ الخاصة بالهجمات دون التعرض لأعراض الانكشاف لغاز أعصاب. يوحي هذا بأن الغاز المستخدم يُرجح أن يكون أقل انتشاراً من حيث المدة وأقل سمية، وهو غاز السارين وليس غاز في إكس.

وبناء عليه، فبينما لا يمكن أن نعتبر هذه النتائج قطعية دون تحليل معملي للعينات البيئية والفسيولوجية، فإن عدد الضحايا الكبير جراء الهجوم، والأعراض الطبية التي ظهرت على الضحايا ثم على العاملين بالمجال الطبي الذين عالجوا الضحايا، وحقيقة أن المناطق القريبة من مواقع الهجمات كانت آمنة في دخولها بعد الهجوم مباشرة، فهذا كله يشير إلى أن الهجوم تم بغاز فوسفات عضوي كيماوي أكثر سمية من مادة مالاثيون المستخدمة في مكافحة الحشرات، ويرجح أنه غاز أعصاب حربي سام لكن غير دائم الأثر، مثل السارين، الذي يعتقد أن سوريا تمتلكه.

خديعة النظام وحلفائه
انضمام سوريا لمعاهدة الأسلحة النووية

■ ياسر مرزوق

يعرف القانوني والمنظر النازي "كارل شميت" مفهوم السياسة بوصفها جعل سيادة الدولة واستقلالها يرتكزان على التمييز بين العدو والصديق، أما العدو فكل من كان بطريقة خاصة في كثافتها، شيئاً مختلفاً وغريباً وجودياً، بحيث تمكن في الحالة القصوى منازعته، فالسياسة وفق تعريفه تعارض مع الآخر "الأجنبي" ورفعٌ للعداوة إلى مصاف الشرعية التأسيسية والأسطورة المؤسسة.

استناداً للتعريف السابق حكم العسكر وورثتهم سوريا وأمعنوا في هلهلة النسيج الوطني، في إدارة خبيثة لتعايش ظاهري لم يكتف برعاية عناصر التفاوت الموروث بل فاقمها. ولم يحصل أي تطوير لمسألة الشرعية وتداول السلطة. وقلصت الدولة إلى مجرد سلطة لا مكان فيها للأحزاب والصحافة الحرة.

وبات النظام الذي يجمع بشكل مدهش بين الابتزاز والانتهازية، يطرح حجة انهيار الأوطان فزاعة في وجه التغيير ويمعن في الابتعاد عن تطوير أي قيم إيجابية، اجتماعية، واقتصادية، وإيديولوجية، فالسوريون هم ضد الاستعمار، ولاحقاً الامبريالية والصهيونية العالمية دون أن تتاح لهم معرفة كينونتهم كأوطان وجماعات، وعلى ماذا ينبغي أن تتركز هويتهم الوطنية.

السياسة التي قدمت نفسها منذ "ميكافيلي" كنشاط مستقل عن الدين والاخلاقيات، بدت في سوريا البعث وثيقة الاتصال بالدين ومعه نظام القرابة والقبلية والشرف العائلي تعوض بهما عن نقصها البنيوي، وهذا ما يفسر طغيان تعابير الشرف والشرفاء وشرف الوطن، والدفاع عن ديننا وكرامتنا. واعتبار كل معارض لفساد النظام وعنوه خائناً وعميلاً لإسرائيل وتم رصد الميزانيات للدفاع وتقاعست التنمية تحت شعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، وراكم الأسد الأب مخزوناً كيماوياً طوره وريثه على حساب لقمة الشعب السوري.

وقد تنبأ كتب السياسي الكبير "خالد العظم" في مذكراته الجزء الثالث، صفحة 213، عن الجيوش العربية ورغبتها في الاستئثار بالحكم قائلاً:

"جيوش العرب على الرغم مما أنفق على تسليحها وتكوينها، ينقصها قيادة حكيمة وتدريب منظم، فالقواد مشغولون بالكيد، بعضهم لبعض، وبقلب الأوضاع وتسنم الحكم المدني والسيطرة عليه، وقد سألت مرة في مجلس عال القائد العام عما إذا كان ثمة خطط لدفاع، فتلقيت جواباً أذهلني وروعني، وزاد من أسفي على مئات الملايين من الليرات المهدورة وعلى المئة ألف عامل وفلاح يحتبسه الجيش تحت السلاح ويحرم الزراعة والاقتصاد من الإفادة من أيديهم العاملة في الحقول المنتجة والمفيدة، وما ذلك إلا في سبيل تنفيذ أغراض المهووسين من الضباط، طالبي الزعامة والسيطرة على البلاد".

بين ليلة وضحاها وافق النظام على تسليم مخزونه الكيماوي، وتبعاً لمزاعمه، فقد ضحى بهذا المعادل الذي يؤسس، افتراضاً، للتوازن مع الدولة العبرية. ذاك أن بقاء النظام يفوق كل هدف آخر أهمية، ألم تقل سلطة البعث إنها انتصرت في حرب حزيران 1967 لمجرد أن النظام "التقدمي" لم يسقط!

وبالتالي فقدت السلطة السورية القدرة على ممارسة ممانعتها التي قيست وتقاس بالموقف من التوازن مع إسرائيل. وسلمت كل أوراقها بعدما سلمت الجزء الأكبر من سلاح حزب اللّه اللبناني في ظل القرار 1701 الذي أنهى عملياً الصراع مع إسرائيل عبر جنوب لبنان.

بلغة أخرى، يحكم بشار الأسد اليوم بنظام مفرغ من كل مضمون عقائدي أو قيمي، من دون بعث، ومن دون وحدة وحرية واشتراكية، ومن دون صراع مع إسرائيل أو قدرة على بناء «توازن استراتيجي» معها، رأس النظام والمجموعة المحيطة به تريد أن تحكم السوريين وفقاً لـ"خطب الدكتاتور الموزونة" لمحمود درويش:

أنا سيد الحلم لا تحلموا حول قصري بغير الطعام
فمن لغتي تأخذون ملامح أحلامكم كل عام
إذا جف ماء السحاب فلتعصروا لفظة من خطاب السحاب
وإن مات عشب الحقول كلوا مقطعاً من خطاب الطعام
وإن قصت الحرب أرضي فلتشهروا مقطعاً من خطاب الحسام.

الأسد اليوم مستمر في استراتيجية تشبه على نحو فريد الاستراتيجية التي تبنتها في إيطاليا في السبعينات "سلطة خفية" إنما حقيقية فقد لجأت هذه السلطة عندما راحت الألوية الحمر تعيث فساداً، إلى عمليات قتل عمياء يشك بمرتكبها، من أجل تعزيز أركانها بفضل الذهان العام الناجم عن انعدام الأمن المعمم، ومن أجل منع أي تغيير عن طريق تحويل اهتمام البلاد عن المشكلات الاجتماعية التي لم تحل.

وكما في الارهاب الايطالي بعد الحرب حدث في الجزائر في تسعينيات القرن الماضي حيث ضمنت مكاتب استخبارات الجيش لنفسها دوراً مركزياً في تطوير الارهاب الجزائري، وبهذا الشكل دعمت السلطة، حيث برر التلاعب بالعنف إجراءات قمعية متزايدة القسوة، وكانت تقنية الأمن العسكري الجزائري قائمةً على السماح بوقوع عمليات ينفذها متطرفون إسلاميون، "كما في عمليتي مطار هواري بومدين ومقبرة سيدي على في خريف عام 1992"، حيث تلقى مرتكبو المذابح طوال سنين، عون قطاعات معينة من الجيش، في التزود بالأسلحة والمتفجرات أو إيجاد ملجأ لهم في الخارج.

قد تكسب هذه السياسة النظام بعض الوقت، وتثير شبح التطرف لدى الدوائر الغربية، وقد تطيل عمره بسبب تقاعس مجتمع دولي تترنح خطوطه الحمر، لكن تسليمه لسلاحه الكيماوي يعتبر بداية النهاية، وحرباً يخوضها الغرب عبر الإعلام، ليقدم النظام على إثرها التنازلات، إنها رقصة التعري التي يمارسها الدكتاتور، ألم يرهن القذافي النفط الليبي كله لشركات غربية مقابل بقائه في الحكم، ألم يفكك ترسانته ويشحنها على نفقته إرضاءً للولايات المتحدة الأمريكية، لكنه في النهاية لبس ثوب المهرج ورحل.

في ملفنا اليوم سنبحث في الأطر القانونية لانضمام سوريا لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، حيث يبدو للوهلة الأولى وكأن الطرفين الأميركي والروسي اختصرا المأساة السورية بالملف الكيماوي وحده. لكن السؤال هو هل يمكن تطبيق هذا البرنامج من دون الالتفات إلى «جنيف - 2» وتوفير شروط انعقاده، قد تلوح الإجابة من تحديد موعد انتهاء برنامج تفكيك السلاح الكيماوي وتدميره في نصف السنة المقبلة، موعد انتهاء ولاية الأسد في الفترة نفسها.

مبدئياً تحتاج سوريا أولاً للتوقيع على المعاهدة والتصديق عليها، وهو ما أعلنت دمشق استعدادها له. بعد ذلك تقدم قائمة مفصلة ووافية بالمخزونات ومواقع التصنيع ليقوم المفتشون من منظمة حظر الأسلحة الكيميائية بالتحقق منها.

وقد أعلنت منظمة حظر الأسلحة الكيميائية، يوم الجمعة، أن مجلسها التنفيذي سيجتمع "الأسبوع المقبل" لدرس طلب انضمام سوريا إلى معاهدة حظر هذا النوع من الأسلحة.

كما أعلنت الأمم المتحدة مساء الخميس رسمياً تلقيها طلب انضمام سوريا إلى معاهدة العام 1993 بشأن حظر الاسلحة الكيميائية، قبل أن تشير الجمعة إلى أنها ما تزال بحاجة إلى معلومات إضافية. كما أشارت المنظمة إلى أن طلب الانضمام تم نقله إلى الدول الموقعة على المعاهدة.

اتفاقية حظر الأسلحة الكيماويّة:

أول هجوم في التاريخ العسكري استخدمت فيه الغازات حصل في الحرب العالمية الأولى يوم 22 نيسان (أبريل) 1915. في ذلك اليوم ألقي حوالي 150 طناً من غاز الكلور على جبهة «الفلاندر» في بلجيكا فقضى مئات الجنود اختناقاً، بعدها استخدم طرفا النزاع غاز الخردل الذي يحرق الجلد ويتسبب في فقدان البصر.

وقد أدى استخدام الغازات السامة في الحرب العالمية الأولى إلى إبرام أول اتفاق دولي وهو بروتوكول جنيف للعام 1925 الذي حظر الاستعمال الحربي للغازات الخانقة أو السامة أو ما شابهها، وللوسائل البكتريولوجية.

قواعد هذا البروتوكول حظيت بالاحترام تقريباً في المئات من النزاعات المسلحة التي وقعت منذ العام 1925، أما الانتهاكات القليلة المعروفة واللافتة للنظر التي ارتكبت، فقد أثارت إدانة دولية واسعة النطاق وملاحقات جنائية في بعض الحالات. وكان بروتوكول العام 1925 نقطة تحول في القانون الدولي الإنساني، تبعته صكوك قانونية أخرى في شكل اتفاقيات اعتمدتها الدول في عامي 1972 و1993.

اتفاقية العام 1972، المشار إليها غالباً باسم اتفاقية الأسلحة البيولوجية، شكلت خطوة بارزة في العمل على إزالة هذه الأسلحة الشنيعة. ولما كان استخدام هذه الأسلحة محظوراً بموجب بروتوكول العام 1925، فقد نصت الاتفاقية على حظر استحداث وإنتاج وتخزين وحيازة ونقل الأسلحة الكيميائية، بما في ذلك نظم إطلاقها، وطالبت بتدميرها. الاتفاقية دعت أيضاً إلى أن تعمل كل دولة على سن تشريعات وطنية من أجل إنفاذ الحظر المنصوص عليه. وتعقد بانتظام مؤتمرات استعراضية بين كل الأطراف الموقعة من أجل رصد الامتثال لأحكام الاتفاقية واعتماد توصيات تهدف إلى تشجيع تنفيذها وتعزيز فعاليتها.

أما اتفاقية عام 1993 الخاصة بالأسلحة الكيميائية فشكلت تطوراً قانونياً مماثلاً إذ وسعت حظر استخدام الأسلحة الكيميائية المنصوص عليه في بروتوكول في العام 1925، وقد تمّ اعتماد نص إتفاقية حظر الأسلحة الكيماويّة في مؤتمر نزع السلاح في جنيف بتاريخ 3 أيلول 1992م، وفُتح باب التوقيع عليها في باريس بتاريخ 13 كانون الثاني / يناير 1993م.

وتعتبر هذه الاتفاقية الأولى على المستوى الدولي في مجال نزع السلاح والتي تمّ التفاوض بشأنها في إطار متعدّد الأطراف وتتضمّن تعهداً قاطعاً من المجتمع الدولي على إزالة نوع كامل من أنواع أسلحة الدمار الشامل في ظل رقابة دولية. كما أنها تُخضع جميع المخزونات الدولية للأسلحة الكيماويّة ومرافق إنتاجها السابقة لنظام التحقق الشامل والعمل على إزالتها.

وبهدف تفعيل هذه الاتفاقية وتنفيذها، قررت الدول الأطراف فيها إنشاء "منظمة حظر الأسلحة الكيماويّة" في العام 1997 كمنظمة دوليّة تتمتع بشخصيّة قانونيّة وماليّة مستقلّة وتتعاون بشكل وثيق مع الأمم المتحدة والمنظمات الدوليّة ذات الصلة. وكانت سوريا واحدة من سبع دول أعضاء في الامم المتحدة رفضت العام 1993 توقيع اتفاق حظر إنتاج وتخزين الأسلحة الكيميائية.

اختصاص المنظمّة: نزع الأسلحة الكيماويّة وعدم انتشارها

تتحقّق المنظّمة من نزع الأسلحة الكيماويّة وكذلك من عدم انتشارها. وفي هذا الإطار، يقع عليها التأكّد من أن نزع الأسلحة الكيماوية يتم بصورة لا رجعة فيها، علمًا أنه، في الوقت عينه، يقع على الدول الأطراف أن تولي مسألة إزالة الأسلحة الكيماويّة الأولويّة القصوى لضمان سلامة الناس وحماية البيئة.

أما بالنسبة للالتزامات العامة على الدول المنضمة للاتفاقية فتتعهد كل دولة طرف في هذه الاتفاقية بألا تقوم تحت أي ظروف:

أ) باستحداث أو إنتاج الأسلحة الكيميائية أو احتيازها بطريقة أخرى، أو تخزينها أو الاحتفاظ بها، أو نقل الأسلحة الكيميائية بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى أي كان؛

ب) باستعمال الأسلحة الكيميائية؛

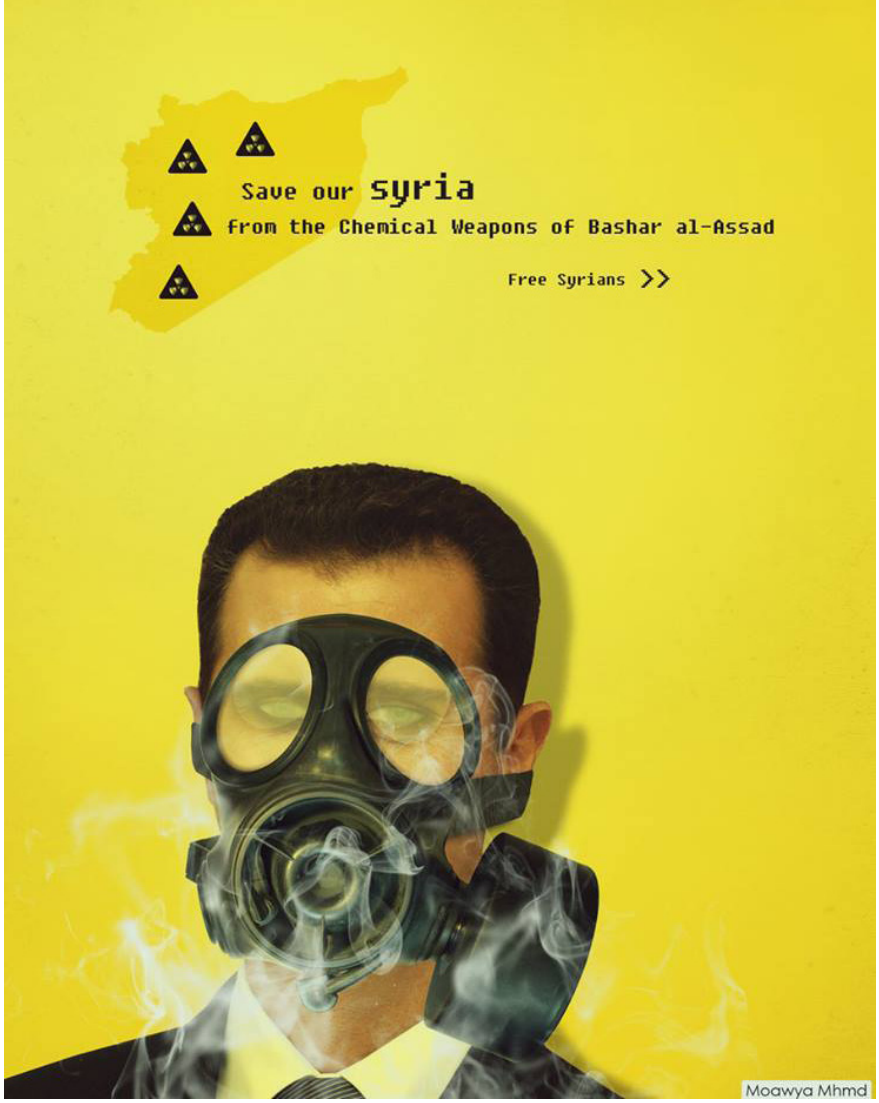

Moawya Mhmd

ج) بالقيام بأي استعدادات عسكرية لاستعمال الأسلحة الكيميائية؛

د) بمساعدة أو تشجيع أو حث أي كان بأي طريقة على القيام بأنشطة محظورة على الدول الأطراف بموجب هذه الاتفاقية.

2) تتعهد كل دولة طرف بأن تدمر الأسلحة الكيميائية التي تملكها أو تحتازها، أو تكون قائمة في أي مكان يخضع لولايتها أو سيطرتها، وفقاً لأحكام هذه الاتفاقية.

3) تتعهد كل دولة طرف بأن تدمر جميع الأسلحة الكيميائية التي خلفتها في أراضي أي دولة طرف أخرى، وفقا لأحكام هذه الاتفاقية.

4) تتعهد كل دولة طرف بأن تدمر أي مرافق لإنتاج الأسلحة الكيميائية تمتلكها أو تكون في حيازتها أو تكون قائمة في أي مكان يخضع لولايتها أو سيطرتها، وفقا لأحكام هذه الاتفاقية.

5) تتعهد كل دولة طرف بعدم استعمال عوامل مكافحة الشغب كوسيلة للحرب.

كما تقدم كل دولة طرف إلى المنظمة، في موعد لا يتجاوز 30 يوماً من بدء نفاذ الاتفاقية بالنسبة لها، الإعلانات التالية، التي يجب أن تشمل:

1. إعلان ما إذا كانت تمتلك أو توجد في حيازتها أي أسلحة كيميائية أو ما إذا كانت هناك أي أسلحة كيميائية قائمة في أي مكان يخضع لولايتها أو سيطرتها؛

2. التحديد الدقيق للموقع والكمية الإجمالية والجرد التفصيلي للأسلحة الكيميائية التي تمتلكها أو توجد في حيازتها أو التي تكون قائمة في أي مكان يخضع لولايتها أو سيطرتها.

3. الإبلاغ عن أي أسلحة كيميائية في أراضيها تمتلكها دولة أخرى أو توجد في حيازتها أو تكون قائمة في أي مكان يخضع لولايتها أو سيطرتها.

4 إعلان ما إذا كانت قد نقلت أو تلقت، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أي أسلحة كيميائية.

5. تقديم خطتها العامة لتدمير الأسلحة الكيميائية التي تمتلكها أو توجد في حيازتها أو تكون قائمة في أي مكان يخضع لولايتها أو سيطرتها.

أما بالنسبة للتكاليف فتتحمل كل دولة طرف تكاليف تدمير الأسلحة الكيميائية الملزمة بأن تدمرها. وعليها أيضاً أن تتحمل تكاليف التحقق من تخزين وتدمير هذه الأسلحة الكيميائية ما لم يقرر المجلس التنفيذي غير ذلك. فإذا قرر المجلس التنفيذي تحديد تدابير التحقق التي تضطلع بها المنظمة، فإن تكاليف تدابير التحقق التكميلية والمراقبة التي تقوم بها المنظمة تسدد وفقا لجدول الأنصبة المقررة لقسمة نفقات الأمم المتحدة على النحو المحدد في الفقرة 7 من المادة الثامنة من الاتفاقية.

مدة العضوية:

العضوية في المنظمة غير محدودة المدة أيضاً (مع إمكانية الانسحاب منها، طبعاً). والمادة الثامنة من الاتفاقية تضمن بصريح النص أنه لا تُحرم دولة طرف من عضويتها في المنظمة. لكن الدولة العضو التي تتأخر عن تسديد اشتراكاتها المالية لا يكون لها حق التصويت في المنظمة، إذا كان المتأخرات من هذه الاشتراكات لا تقل عن مبلغ الاشتراكات المستحقة عليها عن السنتين الكاملتين السابقتين. "ولمؤتمر الدول الأطراف، مع ذلك، أن يسمح لهذا العضو بالتصويت إذا اقتنع بأن عدم الدفع يرجع لظروف خارجة عن إرادته" (الفقرة 8 من المادة الثامنة من الاتفاقية).

في الختام لابد من التذكير بأن الدكتاتور قد يؤخر حركة التاريخ لكنه لا يستطيع إيقافها. وفجر التغيير الذي انطلقت شرارته من تونس لتعم المنطقة بأكمله قد لاح على غرار ما انطلقت من بولونيا فعمت أوروبا الشرقية، واسمع أصوات الحرية ترتفع من جديد في وطني وتقضي على لعنة الحرب.

مقبرة شهداء دوما | عدسة سام

ثورة السوريين من العفوية والسلمية إلى التدخل الخارجي

■ ماجد كيالي

باتت الثورة السورية، مع المداخلات الخارجية (العربية والإقليمية والدولية) فيها، وطول مدتها، والمآسي التي تمخّضت عنها، تعرّف بأنها الثورة الأكثر تعقيداً، والأكثر صعوبة، والأبهظ ثمناً بين ثورات "الربيع العربي".

ويمكن التحقيب لهذه الثورة، العفوية، وغير المتوقّعة، والتي شملت أغلبية السوريين، بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى: وهي التي اتّسمت بالحراكات الشعبية، التي غلب عليها طابع الاحتجاج السياسي والمظاهرات والاعتصامات الشعبية، سلمية الطابع. وهذه شملت الفترة من آذار / مارس - تشرين الأول / أوكتوبر (2011)، وكان من أهم مظاهرها الثورة العارمة في مدن درعا وحمص وحماه، وبعض مناطق دمشق وريفها. وفي هذه المرحلة استخدم النظام جماعات الشبيحة وميليشيات "البعث" ورجال المخابرات، في مواجهة المتظاهرين والمعتصمين والمحتجين، باستخدام الهراوات والأسلحة البيضاء والرصاص، كما تم في هذه المرحلة استهداف نشطاء الحراك السلمي، بالتنكيل والاعتقال والقتل. وفي العموم فقد كان الهدف من استخدام تشيكلات القمع باللباس المدني الإيحاء للعالم بأن ثمة منازعات أهلية، فحسب، ذات صبغة طائفية، وأن الأمر لا علاقة له بثورة شعبية، في محاولة لإنكار ثورة السوريين، ونزع مشروعيتها. وقد بلغ متوسط عدد القتلى من السوريين في هذه المرحلة حوالي 600 شهيد في الشهر، وثمة أضعافهم من الجرحى والمصابين والمعتقلين والملاحقين.

المرحلة الثانية: وهذه شملت الفترة من تشرين الثاني / نوفمبر / 2011، إلى شهر حزيران / يونيو / 2012. وقد تم إدخال الجيش في هذه المرحلة، مع القوى الأمنية وجماعات الشبيحة، في مواجهة المتظاهرين، ليس بصفة جنود مقاتلين فقط، وإنما بأسلحة الدبابات والمدفعية والطائرات، مما نجم عنه تزايد واتساع ظاهرة الانشقاقات من الجيش، وتشكيلات "الجيش الحر"، الذي كان أعلن عن تأسيس نواته الأولى في أواخر تموز / يوليو / 2011. وبديهي أن ظاهرة "الجيش الحر" هذه شجعت بدورها على قيام جماعات الحماية الأهلية (المحلية) في الأرياف، وفي أحياء المدن السورية المشتعلة، ولا سيما في ريف دمشق وحمص وحلب وإدلب ودرعا وشمال شرق سوريا، كردة فعل على العنف المفرط من قبل النظام.

هكذا تم في هذه المرحلة التحول من الثورة الشعبية السلمية إلى الثورة المسلحة، مع استمرار المزاوجة بين النضال الشعبي السلمي، والصراع المسلح ضد النظام. وقد تراوح عدد الشهداء السوريين في هذه الفترة بين 1000 و2000 شهيد شهريا.

ويذكر أن "المجلس الوطني"، وهو الهيئة السياسية للثورة في الخارج الذي تأسس في أكتوبر / تشرين الأول - بدأ عمله في هذه المرحلة، دون أن يحقق النجاحات المطلوبة منه، في الداخل والخارج.

المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة من تموز / يوليو 2012 إلى أغسطس / آب 2013، ويمكن التأريخ لها بتمكن جماعات المعارضة المسلحة من السيطرة على مناطق في المدن السورية، تحديداً مع دخول "الجيش الحر" إلى حلب والسيطرة على مناطق واسعة فيها، كما على مناطق في شمال وشمال شرق سوريا، وريف دمشق، وحمص، وإدلب.

وقد نجم عن السيطرة على هذه المناطق إضعاف شوكة النظام وكسر هيبته، وإظهار ضعف سيطرته على الأوضاع. ولكن ذلك أدى أيضاً إلى

استشراس النظام وإمعانه في التقتيل والتدمير في هذه المناطق، وتهجير سكانها، بحيث حولها إلى حقل رماية، بكل معنى الكلمة، لقنابل طائراته، وقذائف مدفعيته ودباباته، فضلاً عن تشديده الحصار عليها، وجعلها بمثابة معتقلات كبيرة لمن تبقى فيها من السكان.

وفي هذه المرحلة استطاع النظام تفكيك وإضعاف المناطق السورية الحاضنة للثورة، وتحويل قطاعات شعبية كبيرة، من داعمة للثورة أو مساندة لها، إلى عبء عليها، بعد تشريد الملايين من بيوتهم، وتدمير ممتلكاتهم، وحرمانهم من مصادر رزقهم، بحيث بات العبء الإغاثي يستهلك عمل كثير من النشطاء، في الداخل والخارج. وقد بلغ متوسط عدد الشهداء في هذه الفترة أزيد من أربعة آلاف شهرياً.

وهذا يعني أن النظام استطاع ليس فقط التخلص من ثقل الكتل الشعبية المتعاطفة مع الثورة وإنما تحويلها أيضاً إلى عبء ومشكلة، بالنسبة للثورة، ما أدى إلى خلق حالات من الإحباط بين الجماهير المؤيدة، التي وجدت نفسها وقد خسرت كل شيء بدون أن تستطيع أن تفعل شيئاً، ومن دون أن تتيقن بالنسبة للمستقبل.

لعل ما فاقم من مشاعر الإحباط والضياع في تلك المرحلة واقع انسداد قدرة الجماعات المسلحة على رفع الحصار عن المناطق التي تخضع لسيطرتها، فهي لا تمتلك القوة لذلك، ولا تمتلك القدرة على مواجهة قصف الطيران والمدفعية، التي تفتك بالأعمار والعمران، هذا أولاً. وثانياً، لم تثبت قيادات الثورة المفترضة، بتشكيلاتها العسكرية والسياسية والمدنية، القدرة على إدارة المناطق التي باتت تحت سيطرتها، بسبب نزاعاتها وضعف قدراتها، وانشغالها بمصارعة النظام، الأمر الذي نجمت عنه اختلالات أمنية، وحالة من الفوضى والخروج عن القانون. ثالثاً، أثر بروز جماعات القاعدة، مثل "جبهة النصرة" و"دولة العراق والشام"، سلباً على نظرة أغلبية السوريين إلى ثورتهم، ونمت المخاوف لديهم من المستقبل، ولاسيما أن هذه الجماعات العسكرية المتطرفة حاولت فرض وجهات نظرها بطريقة قسرية وتعسفية وفجة عليهم، علماً أن قيادات هذه الجماعات - في أغلب الأحوال - لا تمت بصلة لمجتمع السوريين ولا لثقافتهم.

بناء على ما تقدم، يبدو أن مجتمع السوريين بات في واد وثورته في واد آخر، وباتت ثمة كتلة من عدة ملايين من السوريين مشغولة بأمنها وتأمين لقمة عيشها، أكثر من انشغالها بمواجهة النظام، وهي مسألة تتحمل مسؤوليتها الجماعات العسكرية للثورة، التي باتت تتحرك دون تبصّر أو خطة عسكرية واضحة، ودون مراعاة إمكانياتها في مواجهة النظام، ومن دون الربط بين أي خطوة عسكرية والاستثمار السياسي.

المرحلة الرابعة: وهي التي نعيش وقائعها، منذ الشهر الماضي، أي منذ ارتكاب النظام لمجزرة جماعية جديدة في غوطتي دمشق بالسلاح الكيميائي المحظور دولياً، والتي نجم عنها مصرع حوالي 1400 من السوريين. وقد فتحت هذه الجريمة الباب على مصراعيه للتدخّل الدولي، بأشكال متعددة، وبصورة أقوى من قبل، مع احتمال توجيه ضربة محدودة لمواقع قوة النظام، مما يضع الثورة السورية في مواجهة تحديات جديدة، وتعقيدات مختلفة، قد يصعب الآن التكهّن بتداعياتها أو نتائجها. وبديهي أن ذلك، أن حصل، سيتوقّف على حجم هذه الضربة، وحجم تأثيرها على القوة العسكرية للنظام، كما يعتمد ذلك على شكل ردة فعل النظام، وحلفائه (إيران وحزب الله) عليها.

وفي هذه المرحلة باتت الثورة السورية في مواجهة منعطف جديد، على صعيد الاستحقاقات السياسية والعسكرية والمجتمعية؛ وهو الأمر الذي ينبغي تتبع ملامحه بكل اهتمام لأنه ربما قد يقرّر مصير سوريا وشعبها، وربما الإقليم بكامله.

هكذا، وبعد مرور 30 شهراً، أو عامين ونصف، على اندلاع الثورة السورية، لم تعد المعادلة الصراعية قائمة على شعب في مواجهة النظام، ومن معه، أو بين قوى شعبية تتوخّى الحرية والكرامة والديمقراطية، وبين نظام سياسي قائم على الاستبداد والإفساد، إذ بات ثمة عوارض أخرى مهمة وفاعلة ومقررة، كما بتنا نشهد.

والحال فقد باتت الثورة السورية في وضعية جد صعبة ومعقدة وخطيرة، ومصدر ذلك كما لاحظنا، لا يتوقّف، فقط، على استشراس النظام في الدفاع عن سلطته، بالطائرات والدبابات والمدفعية، ثم بالسلاح الكيميائي، ولا في عدد الشهداء غير المسبوق، ولا في المدى الزمني الطويل، فعلى أهمية كل ذلك ثمة، أيضاً، واقع من وجود عدة "طبقات" من الصراعات، المتداخلة والمتشابكة، الأمر الذي يصعّب تعيين حدودها أو تمييزها.

وكما ذكرنا، فعدا عن طبقة الثورة، ثمة الجماعات المسلحة المتطرفة التي لا تتوخّى من إسقاط النظام الاستجابة لمطالب الشعب، المتعلقة بالحرية والمساواة والكرامة وإقامة الدولة الديمقراطية الدستورية، أو دولة المواطنين، فهذه الجهات، تصرّح بأنها تعمل من أجل مشروع آخر، يتجاوز سوريا، ويتأسّس على إقامة دولة الخلافة، أو الدولة الإسلامية الدينية، والطائفية، بغضّ النظر عن أية اعتبارات أخرى؛ وهؤلاء يرون في الديمقراطية، وغيرها، مجرّد هرطقة ينبغي صدّها أو التخلّص منها. والأنكى أن هؤلاء لا يعتبرون انفسهم ضمن هيكلية الثورة السورية، من الأصل، ويصرحون علناً بأنهم غير معنيون بأهدافها، في حين أن قوى الثورة لا تتصرف على النحو الصحيح والمناسب مع هذه الظاهرة الخطيرة، التي أضرّت بالثورة السورية، وبمقاصدها الأساسية، والتي أثارت المخاوف في مجتمع السوريين، بتكويناته المختلفة، فضلاً عن أنها شوّهت صورة الثورة السورية في الرأي العام العربي والدولي.

أيضاً، بات ثمة تصارع الأجندات الخارجية، الدولية والإقليمية، على الأرض السورية، فهذه سوريا، وهي بلد مفتاحي في العالم العربي وفي الشرق الأوسط، وثمة فوق ذلك الدعم اللامحدود الذي تلقاه من إيران، ومن معها، إضافة إلى روسيا. وإذا كان النظام لا يبالي بجعل البلد مرتعاً لإيران وميليشياتها (اللبنانية والعراقية)، فإن هذا النظام بالذات هو المسؤول عن استدراج التدخّل الدولي باستهتاره بالمعايير الدولية، التي تحرّم وتجرّم استخدام الأسلحة الكيميائية، حتى في الحروب بين جيوش الأعداء؛ هذا أولاً. ثانياً، وبالنسبة للحديث عن الضربة العسكرية، فهذه إن حصلت، لا تحصل دفاعاً عن السوريين، ولا نصرة لقضيتهم، بقدر ما تأتي بحسب مصالح الغرب، ورؤيته لذاته، لاسيما أن من تحرك اليوم، تحت ضغط استخدام النظام للسلاح الكيميائي، لم يتحرك طوال 30 شهراً، ورغم سقوط 150 ألف ضحية، وأضعافهم من الجرحى والمصابين والمعتقلين، وملايين المشردين واللاجئين.

هكذا، وعلى خلفية هاتين الحقيقتين فمن المهم بالنسبة للثورة السورية، ومع حاجتها للدعم الخارجي، هو جذب التعاطف والدعم الإقليمي والدولي للثورة، لا جعل هذه الثورة ورقة في يد هذا النظام أو ذاك.

على ذلك ثمة ضرورة للتمييز بين كل ما يجري، وعدم الخلط، بين هذه الطبقات من الصراعات، التي باتت على هامش الثورة السورية، والتي تحاول التسلّل إلى متنها، لحرفها، والتأثير عليها.

وعلى العموم، لا ينبغي لهكذا أمور أن تقلّل من مشروعية الثورة، ولا من سلامة مسارها، ولا من نبل مقاصدها، بقدر ما أن ذلك يتطلب تحصين هذه الثورة المجيدة، وتعزيز نقدها لذاتها، وتنظيمها لصفوفها، وتوضيح ذاتها.

ومعلوم أن التاريخ لم يعرف ثورات خالصة أو كاملة أو نظيفة، وأن الثورات تتمخّض أيضاً عن آلام ومآسي وكوارث، مع الأسف، لاسيما كلما كان تشبّث القوى المستبدة بالسلطة، ودرجة العنف التي تستخدمها لوأد الثورة أكبر، وكلما كان الوقت أطول.

وما ينبغي إدراكه هنا، أيضاً، أن الثورات ليست خياراً، من بين خيارات، أو من بين كماليات، وإنما هي بمثابة ممرّ إجباري للتغيير، حين يستعصي التغيير بالوسائل العادية والسلمية والتدرّجية، أي أنها أيضاً ليست هواية ولا نزوة.

وبخصوص السوريين فربما كان الافضل والأسلم والأجدى لهم لو أنه لم تكن ثمة ثورة من أساسه، لا مسلحة ولا حتى سلمية، وطبعا من دون أي شكل للتدخل خارجي، وحتى ولا نقطة دم ولا دمعة من أم، فما كان السوريون يحتاجون إلى كل ذلك، البتّة، لو أن النظام اكتفى بأربعين عاماً، ورحل بهدوء، متخلياً عن فكرته الشائنة "سورية الأسد إلى الأبد"، ومهّد لمرحلة انتقالية، سلمية هادئة، تتحول فيها سوريا لكل السوريين، ومن دون أي تمييز.

هكذا، وصلنا إلى هنا، وإلى هنا أوصلنا الطغاة الذين تحكّموا بحياتنا ومصائرنا.. هكذا يقف السوريون اليوم بين يدي القدر.

"أهل الكرم" يؤجلون عملية الجيش في قدسيا

■ عامر محمد - دمشق

التجوال اليوم في سوق قدسيا من "المقبرة" وحتى ساحة "تشرين"، كاف لتعرف أن النظام سقط هنا فعلاً، لا شيء يدل عليه، لا صورة للأسد ولا علم للبعث، ولا شرطي مرور أو جابي للكهرباء، حتى فواتير الهاتف الثابت تدفع عن طريق المتاجر الصغيرة بعد أن أغلق المقسم بشكل كامل إثر المعارك قبل عام تقريباً، وليس من الصعب أن تسمع أغنية "يا حيف" لسميح شقير أو ارحل لـ "القاشوش" بصوت عال على بسطة دخان أو في محل خضار، لكن النظام موجود وقريب جداً، فخطا النار عند "مساكن الحرس" الحي الملاصق تماماً للبلدة من جهتها الجنوبية الغربية و"مساكن العرين" من جهتها الجنوبية، يشتعل كل ليلة تقريباً وتُسمع منه أصوات الرصاص والرصاص المضاد.

حين أعلن الجيش عملية عسكرية في قدسيا في الثاني من تشرين الأول من العام الماضي، كان قد تروى لمدة تزيد عن عشرة أشهر، عشرة أشهر كانت كافية لظهور الجيش الحرّ بشكل علني في الشوارع الرئيسية للبلدة، بعد سلسلة من المظاهرات التي لم تهدأ أيام الجمع والمصادمات مع الأمن، رويداً رويداً حوصر مخفر الشرطة بشكل كامل وأصبحت حركة عناصره تحت أعين القناصة ليلاً، وأغلقت كل مراكز الحكومة من بلدية ومحكمة ومقسم الهاتف ثم معمل "بردى للبيرة" الذي تعرض لهجوم كبير في أيلول من العام نفسه وأتلف بالكامل ، وهرب من تمكن من السكان منتظراً تدخل الجيش، فيما بقيت غالبية السكان في منازلها منتظرة المعركة حتى أتت، ومن ذكريات المعركة التي لا تغيب عن بال الطرفيين قصتان لأربعة ضحايا يرويها السكان من الجانبين.

أحمد كحيل "19 عاماً" وشقيقه محمد كحيل "17 عاماً"

كانت المعركة الكبرى لم تبدأ بعد حين قرر والد أحمد كحيل "19 عاماً" وشقيقه محمد كحيل "17 عاماً" نقل العائلة إلى مكان أكثر أمناً، فعائلة كحيل من أكبر عائلات قدسيا، ومنها من حمل السلاح مع الجيش الحر في قدسيا وخارجها، فاختار منزلاً في ضاحية قدسيا "الملاصقة بطبيعة الحال للبلدة وذات الطراز العمراني الحديث" كمسكن جديد، بعد أيام "28-9-2012" اقتحم مسلحون منزل العائلة الجديد واقتادوا أحمد ومحمد معهم، كان المسلحون من اللجان الشعبية في مساكن الحرس بحسب ما تقول العائلة، وقد سقط ثلاثة منهم كأسرى بيد الجيش الحرّ في قدسيا، وهم يحتاجون لرهائن كي يطلقوا المفاوضات، فشلت المفاوضات وقتل أحمد ومحمد ورميا على مدخل قدسيا عند السادسة صباحاً، عند الظهيرة بث التلفزيون الرسمي خبراً قال فيه "إنه تم القضاء على الإرهابي أحمد كحيل متزعم مجموعة إرهابية".

رهف "12 عام" جعفر "14 عام"

في السادس من تشرين الأول 2012، كنت أتحدث مع الضابط المسؤول عن عملية الجيش في قدسيا، الرجل الذي لم يعطني اسمه أو رتبته، كان يشرح لي سير العملية ومدى نجاحها لكنه لم يكن فخوراً، فالرجل في صباح ذلك اليوم كان قد خسر ولديه "رهف وجعفر" كما قال، إذ تم ذبح الطفلين في داخل بلدة قدسيا ورميت جثثهما على مدخلها، بعد أن خطفا في وقت سابق من الطريق الذي يصل بين قدسيا ومساكن العرين، كعملية انتقامية منه شخصياً، وبإيجاز شديد شرح الضابط قصة فقدانه لابنيه، فيما استفاض بالحديث عن جثث مفخخة وجدت في عدة أمكنة من شوارع البلد جعلت إحداها الجيش يخسر أربعة ضباط دفعة واحدة أثناء العملية.

اليوم جدد أبو محمد الغندور "من أكبر عائلات البلدة" محله الكبير الذي يتوسط ساحة قدسيا بشكل كامل، وأعاد له البضائع وافتتح قسماً جديداً وخاصاً بأجهزة الهواتف المحمولة، محاطاً بجميع أبنائه لم يعد هناك أي آثار للحريق الذي التهم المحل في تشرين الأول من العام الماضي، كذلك فعلت كل المتاجر الكبيرة في البلدة والتي تعود لأكبر العائلات فيها "الخطيب، الكيلاني، كحيل" فيما لا تزل آثار الحرائق تغطي أجزاء من جدران المنازل والمحال التجارية في الشارع الرئيس، ومهاطل الرصاص ترسم علامات بالغة في أغلب الجدران، دالة على عملية عسكرية كبرى عاشتها البلدة لخمسة أيام كانت كافية لإعلانها منطقة "آمنة وخالية من الإرهابيين" من قبل الجيش صبيحة يوم الأحد "7-10-2012"، بقيت البلدة آنذاك خالية من السكان لشهرين تقريباً ، حتى السادس عشر من كانون الأول 2013، طائرة "ميغ" أخرجت آلاف من الفلسطينيين من مخيم اليرموك في هجرة جديدة باتجاه قدسيا فانتشروا فيها.

الفلسطينيون وجدوا في قدسيا ملاذاً جديداً بانتظار العودة إلى اليرموك، فحملوا معهم إلى البلدة تجارتهم وهمومهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفيما يسكن البعض منهم المسجد العمري في الساحة الرئيسية، استأجر البعض الآخر المنازل الفارغة والمدمرة، فيما استقبلت عائلات كثيرة عدد منهم كضيوف إلى حين، ووجدت المنظمات الدولية التي تُعنى باللاجئين مكاناً لها في البلدة، فافتتحت مدارس ومستوصف ومراكز لتوزيع المساعدات، رغم هذا لا يهدأ الحديث داخل قدسيا وخارجها عن عملية عسكرية وشيكة للجيش، بعد أنباء لا تستطيع أن تلمسها اليوم عن تواجد أعداد كبيرة من عناصر الحرَ وحتى النصرة في البلدة، تُذكر هذه الأنباء بشكل كبير على صفحات "مساكن الحرس الجمهوري" على موقع التواصل الاجتماعي "Facebook" ، فيما بثت الإخبارية السورية تقريراً يظهر الأمن في قدسيا واصفة إياهم بـ "أهل الكرم" في الثاني عشر من تموز 2013، وذلك وفق صفقة عقدها وجهاء البلدة عبر وزارة المصالحة الوطنية مع السلطات الأمنية وتقضي بوقف أي عملية عسكرية إذا سُمح للإخبارية بالتصوير في البلدة.

الأوطـــان لا تمـــوت

■ خالد كنفاني

قلنا في أكثر من مقالة سابقة (حتى مللنا التكرار) أن جميع الأطراف في المجتمع الدولي والعربي لا تسعى إلى حل بسيط وسريع وحاسم في سوريا، ومن هنا برز العدد المهول من المبادرات والمؤتمرات والمنتديات والاجتماعات والمداولات والتجمعات دون أية نتيجة على الأرض، بل على العكس، جرى تصعيد الأمر في سوريا بشكل ملفت للنظر ودخلت كل دول الدنيا على خط الثورة في سوريا حتى بدأنا نشعر بأن هناك من يسحب بساط الثورة من السوريين أنفسهم.

تبرع أصدقاء سوريا بما يزيد على مليار ونصف مليار دولار للشعب السوري، ولكن وها قد مضى على ذلك أشهر عديدة، فأين الأموال ومن يتصرف بها، ومن يقرر أوجه صرفها، ولماذا لا يزال السوريون يموتون يومياً لا من الرصاص والقصف فحسب، بل من نقص الوقود والغذاء والإمدادات وخاصة أن طرق الإمدادات من تركيا إلى الشمال السوري مفتوحة في معظمها، فلماذا لا يتم تزويد الناس باحتياجاتهم الأساسية بدلاً من أن يتم تهريب كل الأملاك الخاصة والعامة بعد أن تم نهبها من الدوائر الحكومية والمعامل والمساكن الخاصة لتباع في تركيا بأبخس الأثمان؟

كما يخطئ من يظن أن هناك بالفعل أصدقاء للشعب السوري، وكل الحشود الهائلة من المؤتمرات والندوات والتي يزيد عدد المشاركين فيها عن ستين وسبعين دولة هي مجرد استعراضات ممجوجة وتوزيع للابتسامات ووعود بالنصر، ومن ثم ينفض المجلس ويعود كل إلى بلده مع أمل موعد للقاء آخر في بلد آخر مع المزيد من الأصدقاء. لقد تعب الناس في الداخل من كثرة الوعود والتنظيرات فقرروا الاعتماد على أنفسهم سواء سلمياً أو عسكرياً وهو ما لم يتوقعه لا أصدقاء ولا أعداء الشعب السوري على حد سواء. يرى كثيرون أنه آن لمعارضة الخارج أن تخاطر ولو مرة واحدة بالدخول سراً إلى إحدى المدن المنكوبة التي يصرخون باسمها ليل نهار، غير أن رد واحداً من قبيل "وهل سنأتي ليزيد عدد المتظاهرين واحداً؟" أو "نحن ندعم الثورة بنشر الفيديوهات على الفيس بوك" تثير الكثير من الغيظ والملل من معارضة استمرأت العيش في الخارج ولا تريد حتى مجرد التضحية بأسبوع من وقت إجازاتهم الفاخرة من أجل "وطنهم" الثائر.

لا يزال السوريون يموتون يومياً بينما يحتفل "أشقاؤهم" في البلاد القريبة بذكرى الثورات والانتصارات، ولا يزال السوريون يحيون ذكرى الموت والقتل بينما أقرانهم في بلاد أخرى يحيون ذكرى الخلاص من الطغيان. ولا يزال الرهان من كثيرين على تدخل دولي يبدو أنه لن يحدث لأن هؤلاء الكثيرين لم يفهموا بعد أن مطامع العالم في ليبيا غير موجودة في سوريا، حتى أن البعض وصل مرحلة التلويح بالأخطار "المحدقة" بإسرائيل في حال استمرار الأزمة على هذا الشكل المتدهور في سوريا، وهي مع الأسف مشابهة لما صرح به رامي مخلوف في بدايات الأزمة بقوله أن فقدان الأمن في سوريا تهديد لإسرائيل. ونرى هنا كيف يقع الكثير من المعارضين في ذات الفخ الذي يقع فيه أعداؤهم ويكررون كالببغاوات مقولات مطابقة لمقولات أركان النظام معتقدين بأنهم يستجلبون عطف أو حمية العالم الغربي للتدخل في سوريا مصرين على إعماء أبصارهم عن حقائق تاريخية وجغرافية أساسية في السياسة العالمية وهي أنه لا تدخل إلا لمصلحة، وأن كل خرافات حقوق الإنسان وحماية البشرية والدفاع عن البيئة هي من مظاهر الترف الرأسمالي الذي يعمل ضمن حدود بلدانه فقط بينما تنقلب معاييره خارج الحدود (العراق وأفغانستان والصومال وسوريا نماذج).

تتشكل حكومات انتقالية وغيرها دون أن يستشار هذا الشعب اليتيم، وكأن قدره أن لا يختار شيئاً بنفسه، ولكن مؤسسي هذه الحكومات نسوا في لحظة ما أن هذا الشعب الذي يثور اليوم لم تعد تملأ رأسه الأفكار والطروحات التي تأتيه جاهزة ومعلبة، ولهذا لم يعد أحد يعبأ بكل هذه التجمعات والحكومات، لا الشعب السوري المشغول بلملمة أشلاء جثث أولاده ولا الدول الكبرى التي بدأت بالسأم فعلاً من هذه المعارضات المتعارضة.

الرياح التي تعصف بهذا الوطن أشد وأعتى من أن يحتملها على مدى طويل، صحيح أن التاريخ مليء بالمآسي والكوارث التي مرت على سوريا وتجاوزتها، ولكننا نتحدث اليوم عن سوريا بالمفهوم الجغرافي التاريخي الحالي وليس عن المدن السورية التي عاشت كل منها تاريخاً منفصلاً عن الأخرى في كثير من الحقب التاريخية. سوريا بشكلها وكيانها المعروف اليوم مهددة بالتقسيم والضياع إلى غير رجعة. وملامح هذا التقسيم واضحة ومقدماته موجودة ومعروفة. وفي ظل وجود إرادة دولية بعدم التدخل في سوريا جدياً أو حل هذه المسألة العصية على الفهم، فلن يكون هناك شيء ينقذ هذا الوطن من التقسيم والتفتيت لأن الكثيرين سيجدون في ذلك الملاذ الأسهل والأضمن لهم. نقولها وبكل أسف: لم يتحول هذا الوطن منذ استقلاله إلى وطن حقيقي يضم أناساً بهوية وطنية حقيقية، وإنما كل ذلك كان على الورق وحسب، ولكن الملاذ الأخير لكل المواطنين كان على الدوام إما العشيرة أو الطائفة أو القرية، ومن لم يعش في سوريا خلال الأعوام الماضية لن يفهم هذا الحديث. كانت هناك الكثير من الحالات التي تجاوز فيها بعض السوريين الحدود العشائرية والطبقية والطائفية ولكنها كانت محدودة بالمقارنة بالإجمال العام كما أنها كانت تجارب منفردة عانى أصحابها من عواقب تجربتهم أكثر مما استمتعوا فعلاً بنتائج هذه التجربة.

يحاول السوريون يوماً بعد يوم أن يحافظوا على ما تبقى من أمل في حياتهم ولا أدل على ذلك من إصرار الأطفال على الذهاب إلى مدارسهم رغم كل المخاطر التي باتت تحملها مشوار المدرسة، حتى أن عدداً ممن سقطوا في التفجير الإرهابي في منطقة المزرعة بدمشق كانوا من الأطفال المتواجدين في مدارسهم في ذلك الوقت. لن تتوقف الحياة في وطن يتم نهبه وذبحه يومياً من أهله ومن حلفائه ومن أعدائه، فالبقرة التي سقطت كثرت سكاكينها ولكن أصحابها يرفضون الموت ويرفضون الاستسلام. ورغم أن ملايين السوريين غادروا بلدهم الذي أصبح مرتعاً للمجرمين والقتلة والدم المسفوح يومياً في كل مكان، إلا أن الأوطان لا تموت "ونيرون مات ولم تمت روما"، ولكن فترة المخاض عسيرة جداً وسيقرأ أولادنا عنها في كتب التاريخ وسيعلمون أن ما يعيشوه من حضارة وتقدم كان بفضل التضحيات العظيمة التي بذلها آباؤهم وأجدادهم حتى يتم بناء الوطن على قيم الحرية والعدالة والمساواة.

لم تعد للتظاهرات أو أيام الجمع أية قيمة أو معنى بعدما دخل العنف دائرة مغلقة نخشى من البقاء فيها أمداً طويلاً. الثائرون اليوم هم حملة السلاح فقط، أما الباقون فقد انزووا جانباً أو هربوا من الوطن. فقدت الكلمات كل المعاني بعدما أصبح التحذير من المجازر أمراً طبيعياً مثلما بات وقوع هذه المجازر أمراً طبيعياً أيضاً. تجري الإعدامات الميدانية من قبل كل الأطراف في سوريا اليوم ثم تخرج التصريحات من كل الأطراف أيضاً لتدين وتنكر وترفض وتشجب. وما الفارق؟ تذهب أرواح الناس وحياتهم بأمر من حاكم ميداني يعتبر نفسه إما منفذاً لشرع إلهي أو لشرع ديكتاتوري، ولا نعتبر تصريحات البعض بأن الأحكام تتم بحضور رجل دين وبعض الشهود، مثلما لا يمكن اعتبار الأحكام القضائية الميدانية الجائرة التي يعتبرها النظام شرعية وموثقة.

لم تعد الخيارات كثيرة أمام السوريين بعدما دخلوا نفقهم المظلم من الحقد والكراهية والدمار والقتل والفوضى ولم يبق أمامهم إلا انتظار المجهول في عالم لم يعد يرحم ولا يهتم بوطن مزقته التجاذبات الدولية ويذبحه يومياً نظام ظالم لا يزال حتى الرمق الأخير يقتل ما تبقى من أمل في نفوس السوريين، ولم تكن آخر النكات سوى التحذير العالمي من استخدام الأسلحة الكيميائية ضد السوريين وكأن كل ما حدث فيما مضى كان مجرد تجارب حتى نفهم طبيعة العلاقات الدولية والمصائب المترتبة على انفلات هذا النظام على رقاب العباد وتدمير حياتهم وآمالهم وأحلامهم التي رسموها يوماً ما لمستقبل اعتقدوا فيه أمنهم وأمانهم.

إذا كان التاريخ يرسم خطوطه الجديدة في سوريا منذ أكثر من عام فإن خشيتنا من نهايته أكبر وسوف تزيد مسؤوليتنا تجاه هذا الوطن الذي تتقاذفه الأهواء والألاعيب السياسية. من يراهن على إرادتنا للحياة خاسر حتماً، أما من يراهن على تلوثنا بأوساخ السياسة والدين فنخشى أن يكون هناك من يستعد لتسليم نفسه للساسة ورجال الدين وسنكون رهائن أنظمة شتى كل منها يحكم بطريقته ويفرض منهاجه وهو ما لن نقبله بعد أن قلنا فيما مضى: "الموت ولا المذلة".

آخر الكلام، يقول نزار قباني:

"والشعر.. ماذا سيبقى من أصالته؟
إذا تولاه نصاب.. ومداح
وكيف نكتب؟ والأقفال في فمنا
وكل ثانية، يأتيك سفاح"..

عبد الباري عطوان:
بعد بن لادن.. القاعدة، الجيل التالي

■ ياسر مرزوق

كتابنا اليوم لعبد الباري عطوان الصحفي الذي التقى بن لادن وكتب عنه وبات من المختصين في شؤون التنظيم يصف لنا فكر القاعدة عام 2013 بأنه أخطر من أيام تورا بورا، لأنهم في السابق كان لهم عنوان ثابت، أما اليوم فلم يعد مركزياً كما كان، بل بات كالتنين الأسطوري كلما يُقطع رأسه، يخرج له خمسة رؤوس. وأضاف: لم ينته القاعدة بل استطاع أن يستفيد من الربيع العربي، وأفضل مكان يزدهر فيه الدول الفاشلة، ولذلك نراه ينشط في كل من اليمن والصومال وسوريا.

يخلص عطوان أن مقتل أسامة بن لادن لم يقض على تنظيم القاعدة الذي وسع نطاق نشاطه من خلال تحالفات جديدة منتهزاً فرصة الاضطرابات التي شهدتها المنطقة العربية. ويقول عطوان إن كتابه الجديد يركز على الجيل الجديد لتنظيم القاعدة الذي يرى أنه بات أقوى رغم مقتل بن لادن زعيم التنظيم. وقُتل بن لادن في تبادل لإطلاق النار مع قوة أمريكية في مسكن كان يعيش فيه ببلدة آبوت أباد الباكستانية في أيار 2011.

وقال عطوان لرويترز "الكتاب الأول كان عبارة عن تمهيد وشرح لمفهوم القاعدة ولعقيدة القاعدة ودور القاعدة. لكن الكتاب الثاني يختلف. كيف أصبح تنظيم القاعدة بعد اغتيال زعيم التنظيم أسامة بن لادن. نحكي أيضاً عن عملية التطوير والتطور في فكر التنظيم وفي انتشاره في العالم الإسلامي على وجه التحديد."

ويتناول عطوان في كتابه الثاني بالتحليل الجيل الجديد لتنظيم القاعدة ويلقي الضوء على هجمات نفذها إسلاميون في دول غربية منهم محمد مراح الذي قتل وجرح سبعة أشخاص في مدينة تولوز الفرنسية في آذار 2012. ويقول أن التنظيم الذي شارك بن لادن في تأسيسه صار أقوى وأوسع نطاقاً في 2012 وأصبح له وجود في كثير من أنحاء الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية.

ويشدد عطوان في الكتاب على أن بن لادن تحول إلى رمز روحي للقاعدة أكثر من كونه قائداً نشطاً وأوضح أن التنظيم غير هيكله تدريجياً قبل وقت طويل من مقتل بن لادن بحيث أصبح لا يعتمد على قيادة مركزية.

كما يلقي الكتاب الضوء على دور القاعدة في انتفاضات العالم العربي التي انطلقت شرارتها الأولى من تونس في كانون الثاني 2011. وقال عطوان "تنظيم القاعدة كان من البداية ينتقد بشدة الأنظمة الفاسدة في الدول العربية. يعني كان دائماً يعتبر هذه القيادات مرتبطة بالغرب الذي يحاربه تنظيم القاعدة كما يقول في أدبياته. فهو كان ينتقد هذه الأنظمة من فترة مبكرة جداً. الآن بعد أن انتصرت بعض ثورات الربيع العربي ظهر هناك من يقول أنه لا دور لتنظيم القاعدة.. لا نريد أن يكون أي دور لتنظيم القاعدة لأن سمعة التنظيم كتنظيم إسلامي متطرف لا تناسب بعض ثورات الربيع العربي. لكن عملياً.. بدأ تنظيم القاعدة يستفيد من ثورات الربيع العربي. مثلاً في ليبيا الآن التنظيم موجود وبقوة وهو مسؤول عن اغتيال السفير الأمريكي في بنغازي."

ويضيف أنه من الطبيعي أن تؤثر عملية اغتيال الشيخ بن لادن على قوة التنظيم وفاعليته، فالرجل

كان يمثل قدوة ومصدر الهام لأتباعه بتواضعه وإيمانه العميق بالقضايا التي كان يقاتل من اجلها، وإن اختلفنا معه وأساليبه، ولكن اللافت أن تنظيم 'القاعدة' تطور في السنوات العشر الأخيرة بحيث لم يعد زعيمه يدير شؤونه بشكل مباشر وهو في مخبئه، سواء في منطقة القبائل على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، أو بعد أن انتقل إلى آبوت أباد.

تنظيم القاعدة بات مثل الشجرة الضخمة الكثيفة الفروع في الفضاء، العميقة المتفرعة الجذور تحت الأرض، وقطع فرع منها أو أكثر، ومهما كان كبيراً (بن لادن أو العولقي) من الصعب أن يضعف الجذور التي هي عبارة عن خليط من المظالم والآمال، وهذا ما يفسر عدم نجاح الحرب التي شنتها وتشنها الولايات المتحدة وأجهزة مخابرات عربية وأجنبية ضد تنظيم 'القاعدة' منذ أكثر من عشر سنوات.

القادة الجدد للقاعدة أكثر شراسة من زملائهم أو آبائهم التاريخيين، أو قيادات الجيل الأول، فهم أكثر علماً وثقافة في أغلب الأحيان، والأخطر من ذلك أكثر عداء للغرب، والولايات المتحدة الامريكية بالذات ومشروعها في المنطقة والعالم الإسلامي.

تحت قيادة الشيخ بن لادن، قام نائبه الدكتور أيمن الظواهري بتطوير التنظيم وتحويله إلى شبكة من التنظيمات الميدانية في بقاع عديدة من العالم الإسلامي، بحيث بات أكثر قوة وأكثر خطورة. فالدكتور الظواهري وعلى مدى السنوات العشر الماضية أسس فروعاً في المغرب الإسلامي وفي الصحراء الكبرى، وفي الصومال، وعزز فرع العراق وأعاد تنظيمه على أسس جديدة، وجعل من الموصل إمارته النموذج، والأهم من كل ذلك تحويل اليمن، ومحافظة شبوة إلى القيادة الموازية للقيادة المركزية الأم في منطقة القبائل في افغانستان.

يجب أن لا ننسى أن الدكتور الظواهري كان زعيماً لتنظيم الجهاد الذي كان وراء اغتيال السادات بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد، كما أن هناك مؤشرات على أن تنظيم القاعدة، وإن كان من خلال أسماء اخرى، ينشط بشكل مكثف حالياً في صحراء سيناء، وكان مسؤولاً عن نسف خط الغاز المصري إلى اسرائيل 14 مرة، حتى توقف تماماً.

هناك فروع أقل أهمية للتنظيم في مرحلة النوم حالياً في قطاع غزة ولبنان وشمالي مالي ونيجيريا "بوكو حرام"، وربما قريباً في سوريا، إن لم يكن قد عمّق جذوره فعلاً "أمريكا أكدت وجود التنظيم في سوريا رسمياً". ولا ننسى تواجده في ليبيا حيث شاهد الكثير من الزوار أعلامه ترفرف في أكثر من مدينة وحي.

تنظيم القاعدة حقق ثلاثة إنجازات رئيسية يجب أن تكون مصدر قلق للغرب:

الأول: سيطرته على طرق الملاحة الدولية من خلال تواجده في زنجبار (باتت إمارة اسلامية) في المحيط الهندي وجنوب اليمن والصومال، وجرى خطف أكثر من مئتي سفينة وناقلة نفط في السنوات الخمس الماضية، وجمع حوالي 300 مليون دولار كفديات.

ثانياً: اقترابه من آبار النفط واحتياطاته في الجزيرة العربية من ناحية، وليبيا من ناحية أخرى، والعراق بدرجة أقل من خلال وجود فروع قوية له في هذه المناطق.

ثالثاً: استيلاؤه، أو بالأحرى فرعاه الأخطر في المغرب الاسلامي ودول الساحل (الصحراء الإفريقية) على كميات ضخمة من الأسلحة والعتاد الحربي والصواريخ المضادة للطائرات والدروع، وتطوير إمكانياته المادية من خلال خطف بعض السياح الأوروبيين وإطلاق سراح بعضهم، بعد الحصول على ملايين الدولارات.

ورغم أن تنظيم القاعدة فوجئ بثورات الربيع العربي، وهناك من ينفي أي دور له فيها، وهذا قول فيه الكثير من الصحة، ولكنه قد يكون المستفيد الأبرز من هذا الربيع وثوراته على المدى البعيد، ليس فقط على صعيد الاستفادة من حال عدم الاستقرار والفوضى في بعض البلدان مثل ليبيا واليمن، وإنما لأن القوى الفائزة في الانتخابات إسلامية سلفية وإخوانية في معظم الأحيان، وهذه القوى قد يجد بعضها حرجاً في شن حرب على تنظيم القاعدة.

القادة الجدد لتنظيم القاعدة باتوا يفكرون بطرق أكثر براغماتية، ولم يعودوا يصرون على التمسك باسم التنظيم، بل يفضلون تبني أسماء أخرى مثل التوحيد والجهاد، وفتح الإسلام و'التوحيد' وربما أيضاً 'النصرة' ودولة العراق الإسلامية، وذلك لتجنب المطاردات والاعتقالات والذهاب إلى معتقل غوانتنامو أو ما يشابهه، والتخلص من تبعات بعض أخطاء وممارسات التنظيم السابقة، مثلما حدث في العراق.

الانطباع الذي يقول أن القيادات الميدانية والعناصر العادية هي الأقل حظاً تعليمياً خاطئ كلياً، والدكتور أنور العولقي أحد الأمثلة على صدق ما نقول. القادة الجدد على درجة كبيرة من التقدم العلمي، ومعظمهم درس وتعلم في جامعات غربية، وانظروا إلى الشبكة الإعلامية الجبارة للتنظيم ومواقعه على الانترنت ووسائل اتصاله الحديثة، بحيث لم يعد بحاجة إلى قناة 'الجزيرة' أو غيرها.

أمريكا اعترفت بطريق غير مباشر بهزيمتها في العراق وأفغانستان، واعترفت ضمنياً بهزيمتها في حربها ضد 'الجهاد الالكتروني' حيث تفوقت على أجهزتها الأمنية عقول تنظيم القاعدة.

سوريون.. ولا نخجل

■ خالد قنوت

لم أكن يوماً شوفينياً سورياً، كان الإنسان من أي انتماء هو جوهر تعاطي الحياتي والفكري وكان السلام والحرية والديمقراطية أهدافاً سياسية، عليها يتم إسقاط أي حدث أو نزاع يتطلب تحليلاً واستنتاجاً.

منذ الأشهر الأولى من عمر الثورة السورية العظيمة، تحولت لسوري عن سبق الإصرار والترصد. تفجرت سوريتي عاطفةً وتفكيراً، مع صمود أهل حوران أمام رصاص الأسد الخائن وتحولت سوريتي لحالة شوفينية مع استجابة أهل بانياس وجبلة واللاذقية ثم ديرالزور وحمص وإدلب حماة وريف الشام من دوما إلى داريا إلى حرستا ومعضمية الشام ومنها إلى القابون وبرزة والمزة والميدان والتضامن ومخيم اليرموك.. رغم معرفتي الشخصية بمدن وقرى سورية على امتداد الوطن لكني عرفت الكثير الكثير من قراها وشوارعها ومناطقها من يوميات الثورة. فخري واعتزازي تألق مع الشعب السوري الذي خرج متظاهراً وبيده أغصان الزيتون وقوارير المياه والحلوى يقدمها لجيشه الوطني، لكن ما عمل عليه نظام آل الأسد من تخريب في هذا الجيش أوصله إلى حد خيانة أمانة قسمه والذي أقسمت عليه أنا شخصياً عندما كنت في الجيش:

(أقسم باللّه العظيم.. أقسم باللّه العظيم.. أقسم باللّه العظيم أن أكون خادما وفيا للجمهورية العربية السورية أدافع عنها وأحمي علمها وأحافظ على استقلالها وسلامة أرضها وأحافظ على شرفي العسكري وأطيع رؤسائي في كل ما يتعلق بذلك برا وبحرا وجوا داخل الجمهورية وخارجها وأبذل دمي لأداء هذا الواجب واللّه على ما أقول شهيد).

خانها لأنه طاع رؤسائه دون ارتباط فعل الطاعة بكل ما يتعلق بالدفاع عن سورية والحفاظ على استقلالها وسلامة أرضها والحفاظ على الشرف العسكري الذي يعني الحفاظ على السوريين أبناء بلده من كل ما يتعرضون له منذ ثلاثين شهراً من قتل وتدمير لحياتهم وتهجير واعتقال وإذلال..

اليوم، أشعر بسوريتي أقوى من أي شيء آخر بفضل صمود هذا الشعب الجبار. قرأت واطلعت على الكثير من الشعوب الثائرة المعاصرة في العالم من الثورة الفرنسية، الألمانية، الروسية، الساندينة، الكوبية، الفيتنامية وحتى ثورات التحرر العربية والأفريقية والشرق أوربية، لم تخن الظروف، كل الظروف، ثورة كما فعلت مع الثورة السورية.

دول ومحاور ومنظمات وأجهزة استخبارتية وحتى قوى وشخصيات معارضة وأخرى تدعي المعارضة وآلات إعلامية عربية ودولية كلها تعمل بحسن أو بسوء نية ضد هذا الشعب الأسطوري لأنه يريد السلام والكرامة والحرية. يريد أن يعيش ويعمل ويسافر دون ذل نظام الأسد وبلا إهانة وشك من موظف على حدود دول العالم.

يكافأ هذا الشعب الطيب المعطاء على صبره وكرمه وأصالته ونجدته لأخوته في الانسانية عرباً وشركس وأرمن وقوقاز ويهود عبر التاريخ وأشقاء فلسطينيين ولبنانيين وعراقيين وحتى أتراك بأن يصبح متشرداً في أصقاع الأرض فكرم البعض لا يقارن بجحود الكثيرين.

الجميع يعمل على إسقاط ثورتنا وتشويهها وحرف مسارها الأساسي، لم يتركوا متطرفا في العالم ولم يفتحوا الطرق أمامه لسورية، لم يوفروا وسيلة لتجويع السوريين في الداخل وممارسة التسول عليهم في الخارج، لم يبخلوا بأموال الإفساد إلا وأغدقوها على مدعي المعارضات في الخارج، عملوا المستحيل كي لا يتم تنظيم العمل الثوري سياسياً وعسكرياً وأجبروا الكثير من السوريين بحكم حاجتهم لوسائل الدفاع عن أنفسهم إلى أسلمة الثورة ثم إلى تطييفها.

ما لم يقتله أو يعتقله أو يهجره النظام من كوادر وناشطين سياسيين ومدنيين وإعلاميين وكوادر طبية تقوم قوى مشبوهة الهوية والأهداف بالمهمة وتعمل على نفس نغمة ومصالح النظام ودول العالم المترددة.

دول العالم هذه، ومنذ اليوم الأول حكمت على الثورة السورية بأنها حرب أهلية، وتعاملوا معها على هذا الأساس. وكأن الثورة السورية جان دارك وعلى الجميع تقديمها قرباناً وكأنها المسيح الذي سيصلب من جديد، هل يدرك السوريون سر هذا الإجماع على إفشال ثورتهم؟ الكثيرون يعرفون والكثير الكثير لا يعرف.

السوريون، يعيدون رسم خرائط الشرق من جديد، ويغيرون الموازين التي وضعها عتاة وقادة القوى العظمى على الأرض منذ انهيار الدولة العثمانية.

إن انتصار ثورة السوريين، التي اعتقد أنها في بداياتها، سيهز عروش الكثيرين وستسقط كيانات ومنظومات تبدو اليوم متماسكة صلبة وراسخة.

ليس تمنياً وليس جنوحاً في التفاؤل وإنما منطق العقل والواقع، النظام سيسقط وما على السوريين سوى متابعة الثورة فالذي سيناضلون من أجله سيدخلهم في مواجهات داخلية وخارجية ليست بأقل خطراً مما يلاقونه اليوم من نظام العار الأسدي وتداعياته من داعش وما شابهها.

ويستمر السوريين بصمودهم وسيعودون لشوراعهم ومظاهراتهم يوم سقوط النظام ليكملوا مسيرة ثورتهم وبأشكال متعددة لأنهم يعرفون أنهم صاروا الرقم الصعب في معادلات العالم والنظام المستعد لتقديم سلاح الشعب السوري وارضه وسيادته من أجل بقائه ولأنهم واثقون من أن لا عودة ولا مساومة على حقوقهم ومطالبهم التي دفعوا ثمنها غالياً.

سيعود السوريون المهجرون إلى وطنهم ولن يحتاجوا بعدها لجواز سفر لأنهم سيجعلون سورية الجديدة أرضاً لأحلام العالم الذي سيتذكر وبحسرة أنه استقبل يوماً سورياً ولم يقم بواجب الإنسانية تجاهه.

تاريخ من لا تاريخ لهم
يوميات سجين

■ أحمد سويدان
1994 - 1991

اليوم الخامس 5 / 3

مضيت إلى المهجع الرابع وقضيت فيه قرابة الساعتين لأبارك للدكتور أكرم مرامي بالزيارة التي جاءته هذا اليوم، أنه من قرية الشيحة التابعة لحماه ولا تبعد عنها سوى (5) كيلومتر على طريق ناحية محرده. أسماه والده يوم ولد 1949 على اسم المناضل الحموي التقدمي الذي توحد حزبه العربي الإشتراكي مع البعث عام 1954، وكانت قرية الشيحة ملك آل البرازي، استولى عليها الفلاحون بالقوة وبأمر من زعيم الحركة الفلاحية في حماه المناضل أكرم الحوراني. وكان والد أكرم من المشاركين في الحركة الفلاحية وسجن لمدة قصيرة وعيّن بعدها مختاراً على القرية. أن أكرم صديقنا ورفيقنا تخرّج من جامعة حلب سياسة واقتصاد ثم أكمل دراسات عليا في الإتحاد السوفييتي. والتحق بوزارة التخطيط عدة أشهر بعدها تمّ سحبه لأداء الخدمة الإلزامية التي كان قد خدم منها عدة شهور قبل الالتحاق ببعثة بلاد السوفييت وعاد الآن ليخدم في مؤسسة النقل العسكري، ومن هناك اعتقل في 15 / 12 / 1982. جاءنا من الزنزانة إلى مهجعنا في فرع التحقيق العسكري في 1 / 1 / 1983 وعليه علامات التعب والإعياء والذهول. هناك تعرفت عليه وأخبرني أنه سافر مع 21 موظفاً وموظفة من هيئة تخطيط الدولة لأداء دورة في ألمانيا الشرقية. وقد عرف أم قصي في هذه الفترة وعرف منها أنني معتقل ولكنه لم يتعمق معها في التفاصيل. كان ذلك أول خبر يرد عن زوجتي وأولادي بعد اعتقالي بعشرة أشهر. مزاج أكرم عصبي، فمنذ ثلاثة أشهر جاءت زيارتي وزيارته مع بعضهما وكان متأزماً فلم يقبل أن يزور لخلاف بسيط وقع مع مساعد الانضباط، وزرت أنا، وكانت زوجته برفقة ابنتي خزامى وقد طمأنتها على صحته، وقد بكت من القهر. يعاني من قرحه في المعدة ومن آلام في الظهر. وقد قاده مزاجه المضطرب هذا إلى ضرب طبيبنا السجين ناجي حيدر وتدخلنا لفض المشادة.

اليوم السادس 6 / 3

كلما فتحت وقلبت أوراق المفكرة لا بد أن أتأمل الصور المحفوظة بها والتي جاءتني هذا العام في إحدى الزيارات، أولى هذه الصور لابنتي الصغيرة ريما التي سميتها من وحي فيروز التي غنت أغنية: "ريما ريما الحندقة" وراءها البحر وهي تبتسم ابتسامتها اللطيفة، وصورة الابنة الكبيرة خزامى مع ابن خالها عمار وهي تضحك ضحكة ملأى فرحاً وبهجة، وثالثة، لقصي بجانبيه المقرونين، وأخرى للصديقة والزوجة افرنجية وهي ترتدي الخراطة السوداء وقميصاً بنصف كم، وبيدها كرة طائرة، وهي على شاطئ البسيط. أراجع أيامي وحياتي معهم قبل تسعة أعوام عندما كان الكبير قصي في الصف العاشر وخزامى في الصف الثامن والصغرى في الصف الثاني أو الثالث لا أدري، يا له من زمن ساخر وجائر ويا للحاكم العربي يدفن من ليس معه في رمال الموت ويرفع من شأن من معه إلى أعلى عليين.. هكذا هي الحياة في هذه المنطقة وهكذا هو الإنسان.

الساعة الآن قرابة الخامسة مساء. شربت حلقتنا القهوة، هذه الحلقة تتألف من أربعة أشخاص ونرحب بالضيوف العابرين. نجتمع في الصباح الساعة العاشرة نشرب متة ونتبادل الأحاديث بهدوء واتزان تتألف الحلقة من محمد الحموي من السلمية ومن حمد قطان من السويداء وظافر النجار من سلمية، الأول معلم مدرسة وابن رجل أمضى حياته بائع خضروات، علم ثلاثة من أولاده أما الرابع فهو مساعد في الجيش قد تقاعد وله كذلك أربع بنات. محمد هذا ترك زوجة وثلاث بنات أكبرهن من مواليد 1975، أوقف وسيق للمعتقل في أيار 1983. أما الرفيق حمد قطان فهو من عمري تقريباً من مواليد 1935 أوقف عام 1980 للمرة الثالثة. كانت المرة الأولى عام 1971 لمدة سنة ونصف والثانية 1975 واستمرت حتى عام 1977 له ولدان وثلاث بنات.. الكبرى متزوجة من شاب من لواء اسكندرون كان يدرس في الجامعة السورية. رحلت معه إلى تركيا الآن هما في ليبيا يتقن التركية والإنكليزية ويعملان لدى إحدى الشركات. الثانية متزوجة من شاب من السلمية ويقيمان في حلب.. الولد الكبير يدرس موسيقى في الإتحاد السوفيتي. أما الإبنة العازبة فمخطوبة وتدرس بكالوريا في مدرسة الفنون، الابن الأخير في الثانوية العامة هذا العام. أما العضو الثالث في الحلقة فهو من قرية "المفكر" وساكن سلمية، ومتزوج من ابنة المدرس للفلسفة وخريج الجامعة السورية منذ أوائل الخمسينات أو بعدها بقليل اسماعيل حمود وهو من بيت يهتم بالعلم والأدب.

لظافر هذا أولاد خال اثنان معتقلان لحساب رابطة العمل الشيوعي أحدهما طبيب وكذلك له ابن خالة معتقل وخالته المدعوة زهرة المعتقلة حالياً في سجن جوبر، وقد اغتيل زوجها وابنها البكر في عمل إرهابي في حلب وسأتكلم عن ذلك في الأيام القادمة هذه هي حلقتنا.

اليوم السابع 7 / 3

أعود إلى الكلام عن خالة ظافر المدعوة زهرة كرديه والتي يطلق عليها جماعة حزب العمل (الرابطة سابقاً) أم الحزب.

في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كانت تسكن مع زوجها ملحم كردية في حلب، فهو متطوع بالجيش وقد ندب في أواخر الستينات للعمل في دوائر الأمن، قبل ذلك كان يعمل حلاقاً في بلدة السلمية وهو يحمل ابتدائية زمان الـ 44 أو 43.

بدأت المدن السورية بالانتفاض منذ أوائل الثمانينات احتجاجاً على نظام الحكم الأمني المخابراتي، هذا الانتفاض أخذ في البداية طابع الهجوم على مقرات المخابرات وعناصرها في كل من حلب وجسر الشغور وحماه وحمص، ثم تحول إلى مواجهات مسلحة دامية وقصف بعض الأحياء والرمي بالرصاص للمتظاهرين الخارجين من الجوامع، وشجعت الحكومة على بعث الحراك الطائفي، كما كثرت الاعتقالات والمحاكمات الميدانية.

ويبدو أن النظام قد أُعطِي (كرت بلانش) من أمريكا وإعلامها لتغطية ذلك. وفي ليلة من ليالي صيف 1981 طرق باب داره وكان موجوداً في البيت مع ابنه وهو من مواليد 1958، أما زوجته زهره فكانت في السلمية مع ابنها الأصغر.

ذهب الابن ليفتح الباب ففوجئ فور فتح الباب بالمهاجمين حيث وضعوا على فمه لاصقاً، وطعنوه حتى أسلم الروح واستأنفوا الدخول حيث كان الأب في الداخل طعنوه وأغلقوا فمه بلاصق فهوى أرضاً مضرجاً بدمائه وهرب الجناة.. الزوجة أقامت في حلب، بعدها بمدة انخرط ابنها كرم في صفوف حزب العمل، ويبدو فيما بعد أن الزوجة وابنها حولا البيت إلى وكر للحزب المناوئ للسلطة. وكانت تتم في البيت طباعة المنشورات والاجتماعات. دوهم البيت بعد اكتشافه من قبل الأمن وآلات الطباعة بداخله وذلك عام 1986. واعتقلت زهرة في ربيع العام نفسه.

لقد رأيت ابنها كرماً منذ أيام في جناحنا وسألته عن أمه ومصيرها، قال: - إنها الآن في سجن حرستا، ولا يعرف سوى أنها حية، ولم يزرها أحد سوى خال واحد هو حسام الذي له (5) أولاد في السجن.. كان حزيناً وغائر العينين، هذه هي قصة زهرة كردية خالة جاري في النوم ظافر النجار.

شيخ دمشق
جمال الدين القاسمي 1866 - 1914

■ ياسر مرزوق

ولد محمد جمال الدين بن محمد بن قاسم بن إسماعيل بن أبي بكر الحلاق القاسمي الكيلاني الحسني الدمشقي، وهو من أحفاد الشيخ عبد القادر الجيلاني من سلالة الحسن السبط، في دمشق عام 1866، أبوه هو الفقيه الأديب الشيخ "محمد سعيد القاسمي"، الذي وصف جمال منهجه فيما بعد قائلاً: " مال أخيراً لمذهب السلف الصالح، وترك التعصب في المسائل الخلافية، وأخذ بما صح، ودعا للحق مع اعتدال في المشرب".

تلقى جمال علومه في المدرسة الظاهرية، وانصرف إلى متابعة دروس حلقات شيوخ عصره ومنهم "الشيخ سليم العطار، بكري العطار، محمد الخاني، حسن الدسوقي"، وأجازوه بجميع مروياتهم، ثم عكف على دراسة التفاسير ومدونات السنة وشروحها، ومؤلفات أصول الدين والفقه.

كان القاسمي يطالع كثيراً من الصغر ولا ينشغل باللعب مع أقرانه، ولذلك وجد في أوراقه عدة دفاتر فيها ملخصات ومنتخبات من مطالعته في الكتب – طبعاً نقصد المخطوطات – أطلق عليها اسم "سفينة" وعمره 15 سنة، وقد كان محافظاً على وقته وله همة عالية في القراءة، قال عن نفسه: "وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة صحيح مسلم بتمامه رواية ودراية في أربعين يوماً، وقراءة سنن ابن ماجه كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة الموطأ كذلك في تسعة عشر يوماً.. فدع عنك الكسل، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل".

وقد حبب للقاسمي القراءة حتى قيل أنه قرأ واقتنى غالب ما طبع في عصره من كتب، وبيته يحتوي على مكتبة أسسها جده الشيخ قاسم ووسعها أبوه ونماها القاسمي بعد وفاة والده حتى تركها وفيها 2000 مجلد، وجعل لها غرفة خاصة وصنع فهرساً بكتبها، وتتميز مكتبة آل القاسمي بتنوعها الواسع وعدم اقتصارها على الكتب الشرعية، وأوقفها على ذريته وطلبة العلم ونشر إعلاناً بذلك في الصحف، وهي لليوم مفتوحة للباحثين، فجزى الله أحفاد القاسمي على رعايتهم لوصية ووقف جدهم.

ولتميزه في طلب العلم وعدم اكتفائه بمكانة أبيه طلب بعض الطلبة منه أن يشرح لهم بعض مقدمات العلوم وعمره 14 سنة، فكان يدرسهم بعد المغرب قبل موعد درس أبيه، الذي كان يواظب على حضوره.

بدأ نشاطه الدعوي وعمره 21 سنة ثم أصبح مدرساً في مدرسة عبد الله باشا العظيم والتي كانت إحدى حصون الدعوة إلى الإصلاح في العاصمة الأموية بحسب وصف العلامة محب الدين الخطيب إذ كان من المستفيدين منها، وكان من المدرسين فيها: العلامتان طاهر الجزائري وجمال الدين القاسمي ولكل واحد منهما غرفة يستقبل فيها تلاميذه.

وبسبب تميزه في التعليم والإصلاح تم اختياره من قبل الوالي العثماني لإلقاء دروس

عامة في شهر رمضان في بعض النواحي من سوريا، فذهب إلى وادي العجم وسجل يوميات تلك الرحلة في كتاب بعنوان "بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم"، وفي السنة التالية اختار أن يذهب إلى قضاء النبك وألف فيها "حُسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك"، وطلب أيضاً في السنة التي تليها فذهب إلى بعلبك، وكرر الذهاب إليها في السنة التي تليها، ثم يبدو أنه طمع في تلك الرحلات بعض الطماعين البطالين الذين لا يهمّهم سوى المكافأة المالية فأبطلت الدولة تلك الرحلات، ويعلق القاسمي على ذلك بقوله: "مع أن بها النفع العام، لمن قام بها حق القيام".

بعد وفاة والده تسلم إمامة وخطابة وتدريس مسجد السنانية وهو المسجد الذي كان يؤمه والده وجده من قبله، فتولى الإمامة والتدريس فيه للطلبة والعامة وألف فيه كثيراً من كتبه وأهمها تفسيره "محاسن التأويل"

في عهد السلطان عبد الحميد وحكومة الاتحاد والترقي فقد كان شديداً، اتهم القاسمي بالتحريض على تأسيس جمعية النهضة السورية المناهضة لحكم الاتحاديين والمطالبة بالاستقلال الإداري وقيام حكومة عربية، وأنهم على صلة بأمراء من نجد، فأنكر هذه التهم وبين عدم صلته بجمعية النهضة، والتي كان رئيسها محب الدين الخطيب وسكرتيرها صلاح القاسمي شقيقه الأصغر.

قبل وفاته بخمس سنوات، إلى إشكال آخر مع الحكومة العثمانية، فقد جرت الإطاحة بالسلطان عبد الحميد قبل بضعة أشهر فيما سمي بالانقلاب العثماني، وجاء السلطان محمد رشاد الذي أعلن الدستور العثماني، وأعقب هذا عودة كثير من الحريات التي كانت مقيدة، ومعها كثير من الفوضى والاضطراب، وانتهز بعض الخصوم في الشام الوضع ليتهموا خصومهم بالتآمر على الدولة، وكان سهم الاتهام موجهاً إلى الأستاذ محمد كرد علي ومجلة المقتبس، ولكنه طال القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار والوجيه عبد الرحمن بك اليوسف الزركلي، ومدار التهمة أنهم يسعون لتكوين دولة عربية وخلافة جديدة، فبادر الوالي العثماني إلى استجوابهم والتحقيق العلني في القضية، دون تروٍ أو تأمل، مما سبب لغطاً كبيراً وإحراجاً شديداً للمتهمين، ثم ما لبث أن تبين زيف هذه الادعاءات وبعد هؤلاء عنها، فطوي التحقيق واندثرت المسألة.

ومن أبرز أولاد الشيخ جمال الدين ابنه الأستاذ ظافر القاسمي رحمه الله تعالى، الذي ولد في سنة 1913 قبيل وفاة والده، ودرس المحاماة في دمشق، وانتخب نقيباً للمحامين في سورية 1955، وتوفي سنة 1984، وقد تابع نشر كتب والده.

كان القاسمي يرى أن الدين مدرسة أخلاق وأنه يدعو الوحدة لا التفريق، وأن العقل حجة الله القاطعة البالغة، والنقل لا يأتي بما يناقض العقل، وأن العلماء اتفقوا على أنه إذا تعارض العقل والنقل أول النقل بالعقل".

وأن مراد الاصلاح العلمي بالاجتهاد ليس القيام بمذهب خاص، والدعوة له على انفراده، وإنما المراد انهاض همم رواد العلم، لتعرف المسائل بأدلتها.

كما كان له آراء في الدولة وقوتها والوطن والسياسة والعرب وغيرها جاء في بعضها:

أن القرآن قد أمر بوجوب إعداد القوة الحربية، وأنه لما ترك المسلمون العمل بهذا الأمر، اهملوا فرضاً من فروض الكفاية، وأصبحت جميع الأمة أثمة، وأن طمع العدو في البلاد الاسلامية، لأنه ليس فيها معامل للأسلحة، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو، وقد أن للأمة أن تنتبه من غفلتها قبل أن يداهم العدو ما بقي منها، فيقضي على الاسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار.

وإن حب الوطن من أمهات الفضائل، وهو أن يبذل المرء ما يقدر عليه، مما أعطاه الله من العلم والمال والخبرة والنصح في عامة الأحوال والأزمان لمنفعة وطنه ومواطنيه.

وحض على الجهاد لأن العدو يريد أن يقضي على الدين، وأن ينهب الأموال والمقتنيات، ويهتك الحرم، ويمحو تاريخ المجد، ويفني اللغة والعلوم.

هلل القاسمي للدستور العثماني بكثير من الفرح، ودعا لتولية الأكفاء، وإعطاء كل ذي حق حقه، لكن العمر لم يمهله ولم يمهل الخلافة العثمانية لتحقيق المبتغى، توفي القاسمي عام 1914 في دمشق، عن 49 عاماً، ودفن في مقبرة الباب الصغير فيها.

القانون رقم 12 لعام 2010
زيادة رسوم التقاضي

■ ياسر مرزوق

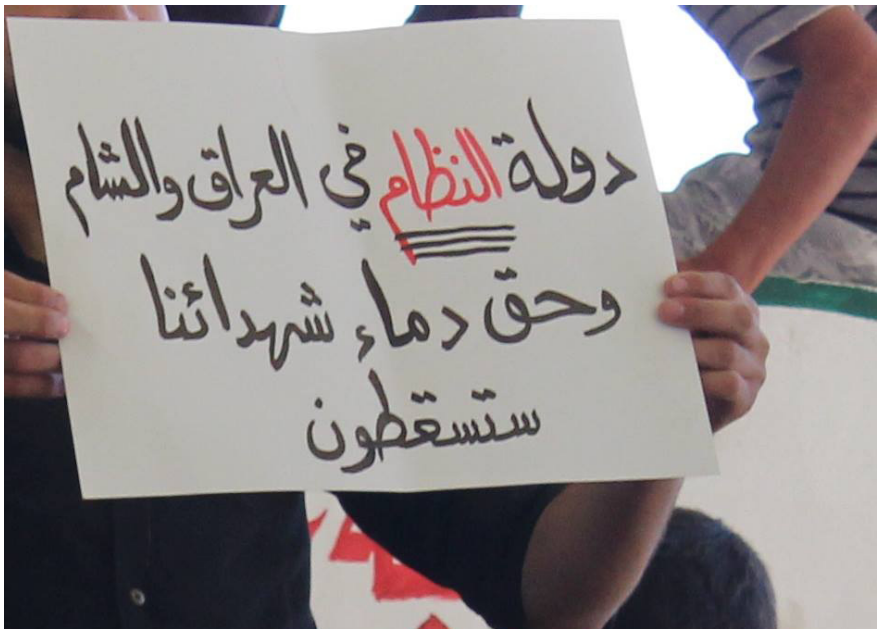

الرسم مبلغ من المال يجب أداؤه بمقتضى القوانين والمراسيم، أو القرارات والبلاغات التي تستمد مشروعيتها من القوانين، لقاء خدمة أو منفعة تقدمها الدولة عن طريق وزاراتها أو إداراتها بحكم سلطاتها ووظائفها المختلفة. وبما أن الرسوم إجبارية وإلزامية تفرضها الدولة بإرادة وحيدة الطرف، مستغلة امتيازاتها وسلطاتها العامة، بعد إجازته والموافقة عليه من السلطة التشريعية.

ويجب حين فرض الرسوم من السلطة التشريعية مراعاة أحكام الدستور، والذي بحسب المادة / 28 / منه الفقرة / 4 / " فإن حق التقاضي وسلوك سبل الطعن والدفاع أمام القضاء مصون بالقانون "، وبذلك لا يملك أحدٌ الحق بأي شكل من الأشكال أن يمنع المواطنين عن طريق القوانين أو المراسيم أو القرارات أو البلاغات التي يسنها من اللجوء إلى القضاء والدفاع أمامه عن حقوقهم وحرياتهم، حيث يعتبر ذلك مخالفة للدستور.

أن دور المشرع ينحصر فقط في تنظيم وتسهيل اللجوء إلى القضاء والدفاع أمامه، ومخالفة ذلك يعتبر غير دستوري ولا يجوز الأخذ به والعمل بمقتضاه. الفقرة / 3 / من المادة / 25 / من الدستور أقرت مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون حيث نصت على «المواطنون متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات، وتكفل الدولة ذلك» ومن أحكام الفقرة / 4 / من المادة / 25 / حيث نصت " أن تكفل الدولة مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين ".

لكن القانون رقم 12الذي أُقِرّ بعيداً عن الإعلام بتاريخ / 3 / 2010 والقاضي بزيادة الرسوم على عملية التقاضي بشكل كبير، والذي استحدث رسوماً جديدة لم تكن في السابق يعد مخالفاً لروح الدستور. وقد تبدو الرسوم المفروضة مقبولةً للقارئ إلا أنها في واقع احال ارتفعت عدة أضعاف، لتلقي بثقلها على المواطن الذي يلجأ للتقاضي شخصياً دون توكيل محام بسبب الأعباء المالية، كما في حالة الرسم المفروض على تصوير أي ورقة من الدعاوى بمعدل خمسين ليرة سورية لكل ورقة وهذا رسم باهظ لامثيل له في الدول المجاورة.

وفيما يلي النص الكامل للمرسوم:

المادة - 1 يعدل جدول بيان فئات الرسم الإضافي المحدث بموجب القانون رقم 254 تاريخ 19 / 7 / 1960 المتضمن فرض رسم إضافي لدى القضاء لإنشاء دور المحاكم وإصلاحها على النحو التالي:

أ - في الأمور المدنية:

1 - محضر المحاكمة في الدعاوى الصلحية – والطلبات العارضة – والتدخل والاعتراض (50) ليرة سورية إذا كان المطلوب لا يتجاوز (300، 000) ليرة سورية و(100) ليرة سورية إذا زاد المطلوب عن (300، 000) ليرة سورية أو كانت الدعوى تخضع للرسم المقطوع.

2 - محضر المحاكمة الاستئنافية للأحكام الصلحية والاستئناف التبعي والتدخل (100) ليرة سورية.

3 - محضر المحاكمة البدائية والطلبات العارضة والتدخل والاعتراض (100)ليرة سورية.

4 - محضر المحاكمة الاستئنافية للأحكام البدائية والاستئناف التبعي والتدخل (150) ليرة سورية.

5 - محضر المحاكمة في طلب إعادة المحاكمة (150) ليرة سورية.

6 - طلب النقض والنقض التبعي (150) ليرة سورية.

7 - إيداع صك الشركة المساهمة ديوان المحكمة (500) ليرة سورية يستوفى نصف الرسم عن الملحق.

8 - إيداع صك باقي الشركات التجارية ديوان المحكمة (250) ليرة سورية يستوفى نصف الرسم عن الملحق.

9 - الإجابة في ذيل الاستدعاء على الطلبات المقدمة إلى الدوائر القضائية (50) ليرة سورية.

10 - صور الأحكام ومحاضر الجلسات وغيرها من صور الأوراق (50) ليرة سورية عن كل ورقة.

11 - طلبات تسليم الأمانات القضائية والودائع (75) ليرة سورية إذا لم يزد المطلوب تسليمه عن 50، 000 ليرة سورية و(125) ليرة سورية إذا زاد المطلوب تسليمه عن 50، 000 ليرة سورية. وإن كانت قيمتها غير مقدرة فتقدر من قبل المحامي العام أو رئيس النيابة.

12 - طلبات تجديد القضايا المشطوبة أو المتروكة للمراجع (25) ليرة سورية أمام المحاكم الصلحية و(50) ليرة سورية أمام المحاكم البدائية و(100) أمام المحاكم الاستئنافية.

ب – في الأمور الجزائية:

1 - في استدعاء الحق الشخصي في التحقيقات أو أمام المحكمة (75) ليرة سورية.

2 - استدعاء الاستئناف من المدعي الشخصي (150) ليرة سورية.

3 - طبي النقض المقدم من المدعي الشخصي (250) ليرة سورية.

4 - طلب التحقيقات والأحكام ومحاضر الجلسات وغيرها من صور الأوراق (50) ليرة سورية عن كل ورقة.

5 - طلبات إعادة الكفالات والوثائق والأمانات والتأمينات القضائية والسلف (50) ليرة سورية.

ج - في الأمور الشرعية:

1 - محضر المحاكمة الشرعية والطلبات العارضة والتدخل والاعتراض وطلبات تجديد القضايا المشطوبة والمتروكة (50) ليرة سورية.

2 - عن كل وثيقة شرعية عدا صكوك الزواج (50) ليرة سورية.

3 - طلبات إعادة المحاكمة (100) ليرة سورية.

4 - طلبات النقض والنقض التبعي (125)ليرة سورية.

5 - صور الأحكام ومحاضر الجلسات وغيرها من صور الأوراق (50) ليرة سورية عن كل ورقة.

د – في أمور التنفيذ:

1 - عن كل عريضة بطلب تنفيذ قرار أو سند تنفيذي (25) ليرة سورية إذا كان بدل الدين أو قيمته حسب تقدير رئيس التنفيذ لا يزيد عن 5000) ليرة سورية و(50) ليرة سورية عن ك ما يزيد عن (5000) ليرة سورية.

2 - عن كل ورقة يقدمها الطرفان تأييداً لتدبير يلتمسانه (25)ليرة سورية.

3 - عن صور الأوراق المبرزة والمحاضر التنفيذية (25) ليرة سورية.

4 - عن طلب استئناف قرارات رئيس التنفيذ (100) ليرة سورية.

5 - عن طلب الحجز الاحتياطي أو التنفيذي (50) ليرة سورية.

هـ – في أمور كتابة العدل:

1 - الأوراق والسندات التي ينظمها كاتب العدل أو يقوم بترجمتها (50) ليرة سورية. عن كل توقيع في كل موضوع لا تزيد قيمته عن (50، 000) ليرة سورية، أو إذا كان الموضوع خاضعاً للرسم المقطوع. و(100) ليرة سورية إذا زادت قيمة الموضوع عن 50، 000 - 500، 000 ليرة سورية. و(200) ليرة سورية إذا زادت قيمة الموضوع عن50، 000 - 25، 000، 000ليرة سورية. و(300) ليرة سورية إذا زادت قيمة الموضوع عن 25، 000، 000 ليرة سورية.

2 - طلب استخراج صورة عن الأوراق المنظمة أو الموقوفة أو المحفوظة (50) ليرة سورية. إذا لم تزد قيمة موضوعها عن (50، 000) ليرة سورية.

المادة - 2 – ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعتبر نافذاً بعد ستين يوماً من تاريخ صدوره.

دمشق 23 / 4 / 1431 هجري الموافق لـ 7 / 4 / 2010 ميلادي

مأمون نوفل.. شهيداً حياً

■ جمال داود

في المركز الثقافي الروسي، عام 2009. كنا دوما نختلف، نصرخ، نتشاجر.. كطلاب في دورة الإخراج، أما مأمون كان هادئاً، متواضعاً، عاقلاً.. ينتظر أن ننتهي من عياطنا ثم يقول: يا أخي روقوا وخلينا نحكي..

صوت مأمون كان خافتاً، لكن وقعه كان قوياً، جسده كان نحيلاً، لكن ثقله كان حاضراً، وروحه المرحة وضحكاته كانت دوماً تملأ الصالة..

مأمون لم يترك كتاباً دون قراءة، لم يترك فيلماً دون مشاهدة، وغالباً ما يحضر الأفلام ليوزعها على الجميع بشرط، أن نرجعها إليه، كان يقول خذوا ما أردتم، كتب أفلام، لكن رجاء أرجعوها، مشكلتي مع هذا الشعب، أني أعطيه فلا يرجع..

لديه كل شيء نادر.. أي كتاب ممنوع، ستجده لديه، أي فيلم مفقود، ستجد لديه نسخة، ماسر ذلك مأمون؟ قال لي كل أصحاب المكتبات ومحلات الفيديو والبسطات أصدقائي هنا في جرمانا.. أنا أحب الجميع وأحب التحدث إليهم ومسامرتهم..

لا يوجد فيلم أوروبي، يتحدث عن الحب، لم يشاهده مأمون..

لا يوجد فيلم صيني، لم يشاهده مأمون

لا يوجد كاتب لا يعرفه مأمون..

كم أعطاني وأعطاني.. ولم أكن أملك ما لا يعرفه وقتها، لأعطيه بالمقابل.. دوما كان يسألني..

هل شاهدت هذا الفيلم؟ غداً سأحضره لك

أعطيكم ما تريدون: شرط أن تعيدوه..

حلم حياة مأمون أن يصبح مخرجاً، لأن لديه رؤيا، ولديه نصوص رقيقة حالمة، يريد إخراجها، كأفلام. لا أحد يفهم عليه كثيراً مايقول أو ما يحلم، هو يغرد خارج السرب..

أحد النصوص التي كتبها: يوم كان البدر مكتملاً، امرأة عجوز تراقب من الشباك، شاب وشابة يتبادلون الحب والنظرات من الشباك المقابل، العجوز تنظر في صورة لديها يوم كانت شابة، تتذكر أول لقاء لها مع حبيبها، تبتسم، وتموت بسلام. كانت تقف يومياً على الشباك بانتظار مشهد حب، تحقنه في ذاكرتها، ينهي حياتها..

أسماه مأمون: قبلة الرحمة، رصاصة الرحمة، نظرة الرحمة..

موت رحيم..

لكن موت مأمون لم يكن رحيماً.. كان غدراً من قتلة الحالمين..

مأمون يريد أن يصبح مخرج أفلام حب، قال لي: أريد أن أتخطى حاجز الجرأة، هذه البلد ليس فيها أفلام حب حقيقية.. ليس فيها قبلات حقيقية في الأفلام.. ليس فيها روح شابة، ليس فيها تمرد..

قتلوه لأنه كريم، لأنه لا يمكن شراؤه، قتلوه لأنه قرأ كثيراً، لأنه آمن بالحب

قتلوه لأن لديه حلم.. ربما لأنه يعرف أن يمسك كاميرا

قتلوه ربما، لأنه يعرف كل أصحاب البسطات والمكتبات

قتلوه، لأنه لا يرضى أن يقتلوا الشعب وأن يقف دون الحراك

كتبت منذ فترة.. أني لا أستطيع تخيل كيف يموت المعتقل تحت التعذيب..

أقف عند نقطة في خيالي، رغم كل الضرب، والصراخ، لا أزال أسمع أنفاسه

ربما لأنه حتى في مشاهد الأفلام التي تعتمد المبالغة، مهما ضربوا المعتقل، لا يموت، ينهض في النهاية

ربما لأنه البطل،

وهم الكومبارس..

لم أصدق لحظة قرأت الخبر..

مأمون هو البطل، الذي لا يمكن أن يموت أبداً في معتقل..

وهذا شريط حياتك مأمون، الذي أعطيته لي، ولهذا الشعب، لا بد أن أعيده لك يوماً..

الموت تحت التعذيب في سوريا: رعب يتجاهله دعاة السلام

■ نص لـ: بدور حسن
■ ترجمة: ياسمين الأمين

خالد بكراوي | شهيد فلسطيني سوري تحت التعذيب

ربما يكون واحداً من أقسى جوانب حرب النظام السوري على الشعب السوري هو التعامل بغير حساسية مع القتلى والمجازر المروعة "شيء واحد لن أغفره لبشار الأسد هو عدم إعطائنا الفرصة لأن نحزن على أصدقائنا الذين استشهدوا"، قال ناشط سوري. في الواقع مع تكرار وقوع حالات القتل الجماعية على مدى عامين ونصف من الثورة، أصبح الحداد على اللذين سقطوا ترفاً حرم منه معظم السوريين. ويبقى لنا وجوههم المتفحمة وقصص الشهداء الغير محكية ومعاناة أحبائهم الذين تركوهم وراءهم.

تجريد السوريين من إنسانيتهم

اتضح بشكل مؤلم تجريد السوريين من إنسانيتهم من خلال الجدل الذي أعقب الهجوم بالأسلحة الكيميائية في 21 آب في ريف دمشق. فقد عومل الضحايا على أنهم مجرد أدلة من قبل المجتمع الدولي ووسائل الإعلام الرئيسية والمعسكر المناهض للحرب. أما بالنسبة للحكومات الغربية التي حددت استخدام الأسلحة الكيميائية على أنه "خط أحمر"، لم تعتبر الدماء الحمراء للأطفال السوريين المذبوحين بالأسلحة تقليدية من قبل النظام والميليشيات شنيعة بما يكفي.

بالنسبة لوسائل الإعلام الرئيسية، الثورة السورية هي حرب أهلية بين شرّين، هما ديكتاتور علماني وإسلاميين ملتحين أكلي لحوم بشر.

التحدي المذهل والتضامن الشعبي الذي أبقى الثورة على قيد الحياة رغم كل الصعاب، بالإضافة إلى النضال الشجاع ضد وحشية "الدولة الإسلامية في العراق وسوريا" التي تسيطر على أجزاء واسعة من المناطق "المحررة" في الشمال السوري، والاحتجاجات الشعبية الجارية ضد كل من النظام والإسلاميين مُغيب تماماً في وسائل الإعلام الرئيسية.

بالنسبة لمعظم الائتلافات اليسارية المناهضة للحرب، فإنهم يطلقون حججاً مبتذلة وكاذبة حول أن "سوريا تتحول إلى عراق" وأن الثوار السوريين هم إرهابيون، والأسد يقوم بمحاربة الإرهاب والامبريالية ويتم عرض ذلك على أنها حقائق.

يذكر القليل عن الحرب الطائفية الشاملة التي يشنها الأسد على المدنيين السوريين على مدى الثلاثين شهراً.. كما يذكر القليل عن اعتقال النظام السوري بشكل منهجي للناشطين السلميين والعلمانيين في حين أطلق سراح الإرهابيين المرتبطين بالقاعدة. ولا يهم أن آلافاً من الأسرى السوريين بمن فيهم العمال والأطفال والمتظاهرين العزل ومنظمي المجتمع قد تعرضوا للتعذيب حتى الموت على يد قوات النظام منذ بدء الانتفاضة.

قتل تحت التعذيب

واحدة من أحدث ضحايا التعذيب الذين سيتم تجاهلهم من قبل الناشطين اليساريين المناهضين للحرب هو خالد بكراوي، شاب فلسطيني يبلغ من العمر 27 عاماً يعمل كمنظم مجتمع وعضو مؤسس في مؤسسة جفرا للإغاثة وتنمية الشباب. اعتقل خالد من قبل قوات النظام في يناير 2013 لدوره البارز في تنظيم وتنفيذ العمل الإنساني والإغاثي في مخيم اليرموك للاجئين، في 11 سبتمبر أعلنت تنسيقية اليرموك ومؤسسة جفرا عن مقتل خالد تحت التعذيب في أحد أفرع المخابرات سيئة السمعة في دمشق.

ولد خالد ونشأ في مخيم اليرموك للاجئين في المشارف الجنوبية لدمشق. تم تشريد عائلته من قرية فلسطينية تدعى لوبيه بعد تطهيرها عرقياً من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي أثناء نكبة عام 1948 (النكبة الفلسطينية). في الخامس من حزيران عام 2011، شارك خالد في "مسيرة العودة" إلى مرتفعات الجولان المحتلة. وقال أنه شهد كيفية استغلال أحمد جبريل (الجبهة الشعبية - القيادة العامة) وهي ميليشيا فلسطينية مدعومة من النظام، لوطنية وحماسة شباب اليرموك وحرّضتهم على المسير إلى فلسطين المحتلة في محاولة لتعزيز شعبية الأسد وصرف الانتباه عن حملة قمع المظاهرات السلمية.

توقع خالد رد فعل وحشي من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي، مما دفعه لثني الشباب العزل من دخول منطقة وقف إطلاق النار التي تحتلها إسرائيل ولكن دون جدوى. رأى خالد قوات النظام السورية وهي ترشف الشاي وتلقي نظرة لا مبالاة على جنود الاحتلال الإسرائيلي وهي تمطر المتظاهرين الفلسطينيين والسوريين بالرصاص، قُتل وجُرح العشرات في ذلك الاحتجاج، كما أصيب خالد برصاصتين في الفخذ.

التحويل المهين

روى أحد أصدقاء خالد رؤيته والدموع تنهمر منه في المستشفى بعد تلقيه زهوراً مع بطاقة كتب عليها "لقد شرفتنا، أنت بطل". بالنسبة لخالد هذه البطاقة تمنح الشخص المصاب شيئاً من الفخر القومي، لكنه بنفس الوقت كان دليلاً على اعتبار السوريين سلعة، والذي هو السبب الرئيسي لاندلاع الثورة السورية. وأعني بذلك استرداد الفرد والمجتمع لكرامته التي تم سحقها من قبل النظام الذي يعتبر السوريين كأدوات رخيصة للاستعمال.

قتل بالرصاصة الخاطئة

كثيرون ممن اعتبروا خالد بكراوي بطلاً بعد إصابته من قبل الاحتلال الإسرائيلي لم ينطقوا بكلمة تعزية بعد وفاته تحت التعذيب في زنزانات النظام السوري. لم تُدن منظمة التحرير الفلسطينية ولا أي فصيل سياسي فلسطيني آخر قتل واحد من أبرز الناشطين في اليرموك. ولم يحتجوا على مقتل ثلاثة سجناء فلسطينيين آخرين تحت وطأة التعذيب في الأيام الخمسة الأخيرة، بالنسبة لهم على ما يبدو أن الفلسطيني لا يستحق لقب "شهيد" إلا إذا قتل على يد قوات الاحتلال الصهيوني. ويعتبرون أن من سوء حظهم إنهم قتلوا على يد مناهضي الامبريالية والممانعين "نظام الأسد" مما يجعل القتل مقبولاً والضحية لا تستحق التعاطف.

فشلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بإصدار تكريم للشهيد الفلسطيني أنس العمارة الطالب في كلية الحقوق والذي يبلغ من العمر 23 سنة، مقيم في اليرموك، ناشط في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منذ سن التاسعة وكان أنس وهو الشيوعي الثوري الذي نأى بنفسه عن الإصلاحيين اليساريين التقليديين قد شارك في الثورة السورية منذ بدايتها، وقد قتل في كمين رسمه النظام بالقرب من مخيم اليرموك المحاصر في أبريل من هذا العام. قُتل أنس "برصاصة خاطئة" لم يعتبر قتله سبباً للغضب بالنسبة لأبطال القضية الفلسطينية.

التحرر.. حتى من الإيديولوجيا

■ منير الريس / إعلامي وباحث سياسي

يشهد الشارع السوري حالةً فريدةً من الإنقسام بين مكونات الشعب الذي اعتاد لعقودٍ طويلة أن يعتبر نفسه "واحداً". وهو ليس انقساماً "أحادي الخلية" أدى إلى تنافر بين مكونين متشابهين فحسب، بل هو أقرب إلى انشطار نووي أدى إلى تشكيل عددٍ كبيرٍ من الأحزاب الفكرية والسياسية، تتلاقى أحياناً وتتباعد غالباً.

ولعل أوضح هذه الانقسامات هو الحاصل بين "مؤيدٍ للنظام" و"معارض له"، إلا أن نظرةً مدققةً أكثر تجعلنا نميز بين أنماط تفكير مختلفة بين أوساط داعمي الثورة غالباً، وأدت إلى تكريس المزيد من الانقسام بين مؤيدٍ لسلمية الثورة وداعٍ لتسليحها.. وبين متشبثٍ بسوريا مركزية وآخر يرى الحل في "فدرلتها".. وبين ناقضٍ لتجاوزات الثوار ومتعلمٍ عنها.. وأخيراً بين من يدعو إلى "لبرلة" الثورة، وآخر يحارب في سبيل أسلمتها.

وإن كانت حالة الاختلاف بالرأي والتناقض في وجهات النظر حالةً صحيةً في المجتمعات المنفتحة والمتنورة، فإن البعض يرى فيها وتداً يدق في نعش الديمقراطية السورية المرتقبة بعد سقوط النظام الحالي، والسبب يعزى دائماً إلى رفض أي طرف تقبل وجهة نظر الآخر ومحاورته فضلاً عن القبول بحقه في الرؤية ورغبته في التعبير.

لدى محاورة البعض من مؤيدي النظام السوري، كان من الواضح أنهم يعتقدون أنفسهم موحدين تماماً تحت راية العلم و"القائد"، متجاهلين الكثير جداً من تجاوزات النظام التي كانت محور أحاديثهم قبل اشتعال الثورة، وأصبحت من الأمور الهامشية بعدها، بحجة أن "الوطن أولاً"، غير عالمين أنهم ضحايا إيديولوجيا سياسية وفكرية سهر على صياغتها عتاة حزب البعث والقيادة القطرية عبر خمسين عاماً من السيطرة والحكم بقبضة فولاذية على مقدرات وعقول ومستقبل الشعب السوري بأكمله.

ويبرز منهم أيضاً من يتساءل في خضم هجومه على الثورة للسورية (ما هي الإيديولوجيا التي تقوم عليها الثورة السورية؟)، وكنت أجيب دائماً بأن ما يميز إيديولوجيا الثورة السورية هو أنها لا تقوم على أي إيديولوجيا، حتى الآن على الأقل، فلم يجب أن تكون هناك قوالب جامدة للتفكير وتناول المواضيع ذات العلاقة ورؤية مرسومة سابقاً للحاضر والمستقبل، حين يكون الحراك قائماً بالأساس على التحرر من الفلسفات القديمة التي ثبت فشلها وخواءها من أي هدفٍ حقيقي تسعى وراءه قياداتها؟

لماذا يجب بالضرورة أن نتبع ما رسمته الأجيال السابقة حسب رؤيتها في ذلك الوقت؟ لماذا لا يكون لكل واحدٍ منا رؤيته الفريدة التي تضع مصلحة سوريا والسوريين في المقام الأول؟ طبعاً مع اعتبار تام لكافة وجهات النظر الأخرى واحترامها، وربما الاندماج في إطارها في حال التوافق معها لتشكيل رؤية جديدة غير معدة مسبقاً.

يتحمل النظام السوري بالدرجة الأولى مسؤولية دفن العقلية الجدلية التي ميزت السوريين في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، حين كانت دمشق تضاهي العواصم الأوروبية في منتدياتها الثقافية ومجالسها الفكرية، ومن حيث التنور والاعتدال العقائدي. ولا شك أن حزب البعث عمل جاهداً خلال السنوات الطويلة لحكمه على أن ينصب نفسه ممثلاً للإيديولوجيا الوحيدة المسموحة في سوريا "وحدة، حرية، اشتراكية" إضافةً إلى "قائدنا إلى الأبد.. "، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الكبت الديني والاجتماعي والفكري، وحصره فيما يخدم بقاء البعث والأسد في سدة الحكم، ويحدثونك بعدها عن علمانية النظام السوري!

يجب أن نعترف أن نسبةً كبيرةً من السوريين المعارضين أصبحوا يعانون خواءً كبيراً بما يتعلق بالدوافع التي كانت أقرب إلى المسلمات فيما مضى، فمن كان يصحو وينام على فكرة القومية العربية والعلم والنشيد السوريين المقدسيَن، عانى من نفور شديد منها بعد قيام الثورة، خاصةً عندما أصر الأسد على الفرز بين منضوٍ تحت راية العلم والجيش والدولة الأسدية، وبين خائن لها جميعاً، فلم يعد ثمة مجال للتباهي بالعَلم السوري المعروف بعد أن تلطخ بدماء المدافعين عنه، وبعد السقوط المدوي للفكر القومي العروبي على حساب القومية الاثنية والعرقية والمذهبية.

صمت يصم الآذان

إن صمت القيادة الفلسطينية والأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) عن محنة اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ليس مستغرباً على الإطلاق، على الرغم من أن اليرموك، أكبر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، الذي ظل في حصار خانق من قبل الجيش العربي السوري منذ يوليو 2013 فقد حُرم 70، 000 من المدنيين المحاصرين في مخيم اليرموك من الحصول على الكهرباء والمواد الغذائية، مما اضطر البعض للجوء إلى أكل الكلاب. وعلى الرغم من النداءات العديدة من قبل سكان اليرموك والناشطين السوريين إلى كسر الحصار عن مخيم اليرموك إلا أن القيادة الفلسطينية والأونروا لم ترد على هذه النداءات.

وكأن العقوبات الجماعية، والاعتقالات التعسفية وإجراءات الحصار المتشددة والقصف المستمر من قبل النظام لا تكفي، فقد قام المتطرفون الإسلاميون في يوم 12 سبتمبر بخطف وسيم مقداد، ناشط وموسيقي، واحد من اثنين فقط من أطباء يعالجون الجرحى في المخيم.

يتم تجاهل الاستغاثات لإطلاق سراح المعتقلين الفلسطينيين من سجون النظام السوري، اللذين يواجهون خطراً على حياتهم تماماً كالذي يعانون منه أخوتهم السوريون.

جرائم الحرب

إن أي ائتلاف أو منظمة تدّعي السعي من أجل السلام وحقوق الإنسان، ولكن لا تدين بوضوح جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبها النظام السوري هي ليست حقاً حركات تنادي بصدق من أجل السلام، وأخيراً فقد جُردت كلمة سلام من معناها الحقيقي بفضل دعاة الحرب الذين يدعون إلى تعزيز السلام، علاوة على ذلك فمن المثير للسخرية أن الجماعات المناهضة للحرب تلتزم الصمت حول التعذيب وموت أكثر من 2000 سجين سياسي سوري بينما يحتجون ضد توجيه ضربة أمريكية محتملة على سوريا جنباً إلى جنب مع أنصار النظام السوري واليمينيين المناهضين للجماعات الإسلامية.

هذه الجماعات المطالبة بالسلام والتي تنفجر ضد الحكومات الغربية بسبب نفاقها، ينبغي أن تأخذ ثانية للتفكير في نفاقهم الخاص في التخلي عن الثورة السورية منذ اليوم الأول وقبل وقت طويل من عسكرة الثورة.

أيضاً ينصح بشدة أن يقرؤوا "ملاحظات جورج أورويل عن القومية" فهي تناسب العديد من الناشطين اليساريين المناهضين للحرب الذين انتقدهم أورويل ضمن فئة القوميين السلميين.

كتب أورويل أن أقلية من مفكري دعاة السلام يكون لديهم دافع مخفي وهو كراهية الديمقراطية الغربية واحترام الأنظمة الشمولية.

وتختصر الدعاية السلمية عادة في القول أن كلاً من الطرفين سيء بقدر الآخر، ولكن بالنظر عميقاً في كتابات دعاة السلمية الأصغر سناً، يجد المرء أنهم لم يفعلوا ذلك بأي حيادية ولكن يتم توجيههم بشكل كامل تقريباً ضد بريطانيا والولايات المتحدة. بالإضافة إلى أنهم لا يقومون بإدانة العنف بشكل عام ولكن تتم إدانة العنف المستخدم في الدفاع عن الدول الغربية.

في الحالة السورية، على الرغم من أن سعي السلميين اليساريين إلى حجب موقفهم الحقيقي حول السلام والحياد، إلا أن تركيز حملاتهم يكون على معارضة الحرب الأمريكية المحتملة على سوريا في حين يتغاضون عن الحرب الفعلية التي أطلقها النظام السوري. ومن المفهوم أن الأولوية تكون في معارضة حكوماتهم ولكن هذا لا يبرر دعمهم لنظام يقوم بإبادة جماعية ويقللون من أهمية هذه الجرائم ويديرون ظهرهم لصراع الشعب السوري البطل.

وينطبق النقد نفسه على المعارضة غير المتفقة على التدخل. على الرغم من أن السلميين المعادون للتدخل من حيث المبدأ يعترضون فقط على التدخل الغربي في سوريا بينما لا يقولون شيئاً عن التدخل الإيراني والروسي الصارخ في سوريا.

معارضة الحرب هو موقف أخلاقي ونبيل، لكن معارضة ذلك من دون معارضة النظام السوري صراحة والتدخل الإيراني الروسي ودون انحياز مع ثورة الشعب السوري من أجل الحرية والكرامة مفلسة أخلاقياً.

مشروع ومضة
ومضة محبة لكل السوريين

■ أجرت الحوار: مريم أسعد

ومضة كيماوي | عرض الفرقة في شارع الحمرا

في حديث دار بين مجموعة من الأصدقاء في دمشق حول مشروع ومضة، تباينت الآراء، منهم من كان مؤيداً لهم، ويرى في عملهم ومضة ضوء وسط ظلام دامس نعيش فيه، ومنهم من رآه تجميلاً وتصحيحاً لصورة النظام حين يرى أنهم لن يستطيعوا القيام بذلك دون دعم وموافقة من أجهزة الأمن، والبعض الآخر لم يجد موقفاً واضحاً منهم، بينما تجد مآخذ متعددة من الناحية الفنية والتفاعل مع الجمهور..

في عرضهم الآخير، ومضة كيماوي، كان لابد لنا من الوقوف مطولاً أمام هذا العرض ودلالاته المختلفة، فكان لنا مع نغم ناعسة، مؤسسة المشروع هذا الحوار:

| ومضة.. لماذا هذا الاسم تحديداً؟

| | أولاً.. أن تفكير كل شخص منّا اليوم. مقطع بطريقة مخيفة إلى ألف لحظة.. وكل لحظة فيها اختلاف كبير عن الأخرى.. فأنا بدقيقة واحدة.. أفكر بتفجير وموت قريب.. وقصه مؤلمة.. وقذيفة هاون.. في دماغي إذا ومضات من التفكير..

إذا جمعت كل ذلك بفكرة واحدة.. سيكون لديك.. الجواب (مشروع ومضة)..

| كيف بدأت الفكرة، ومن هم أعضاء الفريق؟

| | بدأت الفكرة من أني شخص يحب المبادرات والعمل التطوعي والإنساني..

فمنذ سنه ذهبت إلى مركز لمرضى التلاسيميا في الزاهرة.. حيث كانت الظروف في تلك المنطقة سيئة ولا تساعد على عمل أي تطوع.. ولكنني صممت أن أتابع مع هؤلاء الأشخاص لتميزهم الكبير خلال ورشة العمل التي قمت بها معهم، وبقيت تقريباً شهراً ونصف. وكان محورها المسرح الخفي، فقمت بتجريب بروفا معهم، قدمت في مصعد المركز.. ولكن لم أكمل بسبب الظروف التي ساءت لبعض المرضى، حتى وفاة البعض منهم أيضاً. وبقي المسرح الخفي منذ ذلك الحين ينكزني في أسفل معدتي، لأتابع أمل هؤلاء الأشخاص الذين كانوا بذرة لمشروع ومضة. فقررت أن أبدأ من الموسيقى.. وعرضت الفكرة على صديقي الفنان أري سرحان.. وبدأت الانطلاقة..

| إذا أردنا تقييم العمل فنياً علينا أن نضعه تحت تصنيف معين لتقريب الشكل إلى نموذج معروف فإذا كان هذا العرض يندرج تحت مسمى فنون أداء الشارع أليس من المفروض إدراج الناس وإقحامهم أكثر في العمل؟

| | إلا تعتقد أن المرأة التي ظهرت في الفيديو الأول، وبدأت تقول (قولوا تعيشي يا بلدي) أقحمت نفسها، بل وأكثر من ذلك، فقد أعطت للعرض تألقاً أكثر، لأنها من جمهور الشارع.. أو الولد في الومضة الثانية الذي غنى وبدأ بالدوران..

هذا الاقحام وتفاعل الناس العفوي مع عروضنا، يحقق عنصراً هاماً من عناصر المسرح الخفي.. وهو ضروري لنجاح اي عرض تفاعلي

| في العروض الثلاث التي شاهدناها كان المارة بحالة ذهول مما يرون، وكانت مشاعرهم متباينة في هذه اللحظة، كيف ترون انعكاس ذلك على أدائكم؟

| | هذا يعطينا دعماً وقوة أكبر.. وهذه الدهشة هي جزء اساسي من عروضنا.. وخاصه أن الثقافة السورية لم تشهد الكثير من عروض الشارع.. وليس من تقاليدها.. لكن عندما تشاهد من يبادلك القوه والثقه ستصبح أقوى

| ماهو دور الجمهور هنا؟ متلقي فقط؟ ماذا لو تتدخل أحدهم وغير في مسيرة العرض وطرح أموراً مغايرة لتوجهات عرضكم؟

| الجمهور ليس فقط متلقي بل مشارك.. بالنهاية أنا أقدم عروضي في الشارع ولغط الشارع لوحده كافي بأن يغير مسار العرض.. لكن إنتبه، ليس مسار الأداء، على العكس، فكان هناك ناس تمر بدون أن تعطي هذا الحدث أي أهمية، ومنهم من لا ينظر أبداً.. لكن تدخل أحدهم الايجابي سيكون موضع ترحيب لدى أي فرقة مسرح شارع..

| هل ترسمين أكثر من مخطط للعرض وتعتمدون الارتجال أم أن خطواتكم مدروسة ومحسوبة؟

| | أنا لا اعتمد الارتجال.. في عروضنا الثلاثة أختار الأغنيه.. ويقوم الفنانان أري سرحان وخالد رزق بتدريب الموسيقيين عليها وتوزيع جديد للأغنية.. وأنا من ناحيتي أنسق كل خطوة سأقوم بها.. مثلاً في العرض الأول جعلت المغنية تبدو كجارة تشاهد الحدث، ليفاجئ الجمهور بها تغني من الأعلى.. فتصبح أنظارهم موجهة إليها.. أو مشاركتي في العرض الثاني الكيماوي، فهو محسوب تماماً، ومربوط بحدث جلل كان قبل يومين من عرضنا، فطبعاً الأمور محسوبة وليست إرتجالية..

| كيف يتم اختيار الموسيقى؟ لماذا حلوة يا بلدي تحديداً في عرض الشعلان،

وموطني في عرض الكيماوي؟

| | في الأولى اخترت (حلوة يا بلدي) بما فيها من مناداة للجميع، لأهل الداخل ليفهموا بعضهم ويتشاركوا في مناداة إخوتهم بالخارج، ولأهل الخارج ليعرفوا أن (أملي دايما كان في بلدي إني أرجعلك على طول)، ليكونوا مع من في الداخل، على الشطين.. أما في (موطني) لما لهذه الأغنية من علاقة مع الإنسانية بشكل عام، أنها تمس أي إنسان حتى من خارج سوريا.

| نحن جميعاً سوريون، ولم يعد أحدٌ منا محايداً، أين أنتم؟

| | كتبت في إحدى المرات على صفحتي الشخصية التالي، والذي سيكون هو جوابي باختصار، (أعلن مقاومتي وممانعتي.. فأنا لست مع النظام، ولست مع المعارضة، ولست مع الرماديين، أنا مع الطيبين من أبناء شعبي).. وأنت قلت، نحن سوريون بإمتياز، ومشروع ومضة خلق للإنسان الذي بداخل كل سوري..

| بدا لي في بداية العرض الأخير، بدلالته على السلاح الكيماوي، كأنكم تقولون ليس النظام من استخدمه، وأنه ليس بهذا القدر من العنف؟

| | وكيف تقول أنه ليس بهذا القدر من العنف!؟ أو أننا لسنا مهتمين، لو انتهبت أننا كلنا كنا نلبس الأسود.. كعزاء منا لكل السوريين.. الذين لا يسقطون فقط بالكيماوي.. بل بكل ثانية يسقطون بكافه انواع الاسحله.. نحن لسنا فرقة للسياسة.. لنقول هذا أم ذاك.. أنا قلت أن هناك حدثاً بحد ذاته كارثي.. والموت لأي سوري، هو مؤلم بالنسبة لي، ولكل السوريين..

| أليس مجدياً أكثر أن يتم الإشارة إلى ضحايا المجزرة حتى ولو برمزية ما أو خطاب مباشر؟

| | لا أعتقد أن الفن يجب أن يكون مباشراً.. الأطفال الذين تجمعوا بشكل غريب، بالفيديو الثاني، عندما وضعنا الكمامة، لا أعتقد أن هناك وضوحاً أكثر من ذلك، وهو تعبير عن موتنا برمزيه وليس بخطاب، في النهاية هناك حدثاً كبيراً، ولن أقفز عنه، هو موت السوري كل يوم..

من الظلم أن عرضكم تم بدون أية مضايقة أمنية؟

عرضنا أخذ موافقة رسميه.. مثله مثل أي عرض.. وأنت تعرف أن أي عرض سيأخذ موافقات رسمية لأ أكثر ولا أقل..

| أكثر ما وجه إليكم من (مثقفي المعارضة) نتمنى رؤيتكم في القابون أو مخيم اليرموك أو داريا أو أحد قرى الغوطة؟

| | مثقفي المعارضة يا صديقي كثر، إذا كنت تقصد من يشتمني لن نكترث لشتائمه، وأنا حتماً أتمنى أن أعرض في القابون والغوطة وداريا، فسوريا واحده وللجميع، وحتما هناك بعض الانتقادات ونحن نرحب بها ونتمنى أن تكون بعيدة عن أي عنف لفظي.

| إلا تعتقدين أنك تذكرين الناس بآلامهم التي لم ينسوها للحظة؟

دوماً في الحروب والظروف الغير طبيعية كالتي نعيشها تكون مهمة الفن أن لا يبتعد عن آلام الناس ويساعدهم للعبور نحو مستقبل أفضل، وهذا ما نطمح إليه.. مستقبل أفضل لكل السوريين..

| هل كان من الضروري أن تقدموا الشكر لجهات رسمية، أم هي رسالة موجّهة؟

| | هذا روتين وتقليد ولا يحمل أية صفة موجهة لكنني مطالبة أن أشكر كل من ساهم في مساعدتي ومساندتي، ومنهم أصدقاء شخصيين فمثلاً أنت الآن قمت بحوار معي لصحيفة سورية، أليس من واجبي أن أقدم لكَ الشكر على فرصة لقاء قرّاء جريدتك المحترمة..

| إذا كانت ومضة حب أليس عليها أن تأخذ منحىً أكبر في نشر السعادة وإزاحة تفكير الناس عن الحرب والموت ولو للحظة؟

| | بكل العروض التي قدمت، كانت السعادة واضحة في وجوه الناس، لأنها لهم، ولكن لطعم هذه السعادة نكهة أخرى، نكهة ممزوجة بغصة وتساؤل، متى ستنتهي هذه الحرب!؟ والسؤال الأهم، أليس من الضروري لأنها ومضة حب، أن يقابلها حب، من البعض، لتنتهي الحرب وتنشر هذه السعادة؟!.. لماذا يقدمون مسرحاً، ويغنون ويرقصون في الخارج، ونحن يجب أن نموت؟!.. هذه لوحدها سعادة كافية بالنسبة لي لكي أستمر، لأننا مجموعه فنانين قمنا بمشروع ومضة لكي نقاوم به أي شكل من أشكال القهر والظلم.. ونقول بأننا سنعيش.. سنعيش.. ومعنا كل السوريين سيعيشون أيضاً.. بعد كل هذا الألم..

| كلمة أخيرة..

| | كلمه أخيرة.. سأقتبسها من ماركيز في رسالته الأخيرة: " سأمنح الأشياء قيمتها، لا لما تمثله، بل لما تعنيه". سأنام قليلاً، وأحلم كثيراً، مدركة أن كل لحظة نغلق فيها أعيننا تعني خسارة ستين ثانية من النور.. سوف أسير فيما يتوقف الآخرون، وسأصحو فيما الكلّ نيام.. هناك دوماً يوم الغد، والحياة تمنحنا الفرصة لنفعل الأفضل..

عرض الفرقة الأول في شارع الشعلان

وماذا بعد؟!..

■ جواد أبو المنى

بعد عامين على الانطلاقة نضع معكم على الملأ بعضاً من بداياتنا، وحلمنا، وسوريتنا.. فمنذ بعد انطلاقة ثورة الكرامة في آذار 2011، أدركنا أنه لن يكون عودة للخلف، كان الإيمان لدينا يكبر أكثر فأكثر بأن الغد سيكون للسوريين وحدهم.. أيام ثورة الحرية تؤكد يوماً إثر يوم أنها ليست ثورة ضد نظام جائر ومجرم فحسب، بل هي ثورة ضد كل أشكال الفساد والمحسوبية، ثورة لإعادة بناء دولة حرة ديمقراطية بكل ما فيها.

في بداية الثورة، كان السوريين يشهدون صدور صحف ومجلات ومواقع إخبارية بمبادرات فردية بمعظمها، في محاولة لترسيخ أساس لإعلام حر وحقيقي، بديل عن إعلام محتكر ناطق باسم نظام وأشخاص يُوجه كما أهوائهم ومصالحهم. ففي ظل احتكار الصحف الرسمية التابعة للنظام المساحة الإعلامية على مدى أكثر من أربعين عاماً، بالإضافة إلى إعادة الاعتبار للصحافة المقروءة وترسيخ إعلام سوري حر مستقل عن التجاذبات السياسية والحزبية، إعلام فاعل قادر على دفع عجلة التغيير كأحد المكونات الأساسية في العمل المدني، السياسي، الاجتماعي والثقافي. وذلك من خلال تمكين وتحفيز الناس على الدفاع عن حرياتهم أمام أي نظام سياسي أو سلطات مالية أو سياسية أو دينية دون موارية وحسابات كسبية وخسارات سياسية.

حتى إننا إذا راجعنا فترات ما بعد ربيع دمشق عام 2000، نجد أنه لم تكن أي من تجارب الإعلام الجديد حينها، تعبر عن تطلعات حقيقية يريدها السوريين، بل كانت كلها تدور في فلك النظام أو شخوص مقرّبة منه، مع إملاءات تصل حد التدخل بكل شيء سياسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً.

من هنا ظهرت فكرة سوريتنا كجريدة سورية مدنية مستقلة، بعيدة عن أي من التيارات أو الأحزاب السياسية وغيرها، ولا تنطق باسم أي من شخصيات المعارضة أو التجمعات السياسية، تؤسس وتساهم في بناء إعلام بديل، على المدى البعيد، وتساهم في الثورة وتدعم النشاط المدني والسلمي إعلامياً، على المدى القريب،وإبرازه للسوريين في ظل تجاهل قنوات الإعلام العربية لما يحصل على الصعيد المدني وتركيزها على جوانب الحراك السياسي والعسكري في المجمل وغياب الفاعلين الإعلاميين عن مثل هذه النشاطات.

سوريتنا أساسها إيماننا بالتغيير السلمي ضمن أطر المجتمع المدني ومؤسساته، كوسيلة تحارب التفرقة بين السوريين وتنظر إليهم جميعاً على أنهم سواسية، كمنبر تتبنى عبره أهداف ثورة الكرامة السورية التي تتلخص بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، والوقوف بوجه الظلم والاستبداد والفساد، كمنتج ثقافي يسعى لقلب مفاهيم المجتمع البالية والتي تعمل بشكل سلبي وإعادة طرحها ومعالجتها من وجهات نظر مختلفة ومتعددة، مدنية وغيرها، ليكون للجميع الحق بالرأي والوصول إلى التعددية والديمقراطية، لذلك كان لابد من المضي في هذا المشروع وبشكل جدي ومباشر.

سوريتنا، كانت حصيلة جهود فردية لبضع شباب في وسط دمشق، في بداية مراحل الثورة، وفي أوج نشاطها السلمي والمدني، حيث كانت ثمة مساحة تتيح العمل والمساهمة في تحويل أحلام كثير من السوريين لحقيقة انتظروها طويلاً.

كانت الفكرة بسيطة، بضع أوراق وطابعة، كافية للبدء بتحقيق الحلم، كنا نجمع من الأصدقاء المقربين ثمن الحبر والورق، وكانت كل الصعوبات والإحباطات تتلاشى لمجرد صدور العدد وتوزيعه على الناشطين والأصدقاء، وسماع آرائهم ومقترحاتهم، ومن ثم بدأنا بالتوسع وطباعة كميات أكبر، أيضاً اعتماداً على ذات الجهود الفردية لذات الأشخاص، لتصل حد التوزيع في مكتبات عامة وبشكل سري.. معتمدين أيضاً على صفحة في مواقع التواصل الاجتماعية لتصل الجريدة للسوريين المغتربين، وليعرف العالم أن في سوريا ثورة على كل شيء.

وكم كان جميلاً ومفرحاً عندما عرفنا أن الجريدة تطبع في مدينة حمص وتوزع في المظاهرات أيام الجمعة دون أي تواصل معنا، وعلمنا لاحقاً بأن طلاباً في جامعة دمشق أيضاً يطبعون نسخاً ويتداولونها فيما بينهم دون أن يهتم أحد من وراء هذه الجريدة، فقد كان العطش للإعلام الحر قد وصل حده الأقصى، وكانت تجربتنا بين يديهم، ورأوا فيها ما رسّخ عند الكثيرين بأنه قد حان الوقت لإعلام حر وحقيقي.

توسعت الجريدة يوماً بعد يوم، وتم تطوير بعض أقسامها لتغطي ليس واقع الثورة فحسب بل وماضي ومستقبل سوريا أيضاً، فهي إذاً ليست مشروعاً مؤقتاً ولكنه بذرة لشجرة ستورق يوماً فكراً وحرية ستحتاجهما سوريا القادمة بشكل ملح.

في ذلك الوقت لم يكن من صحف ومجلات الثورة قد صدر سوى جريدة (أخبار المندس) التي صدرت من دمشق في تموز من العام نفسه، واستمر صدورها لخمس أعداد وتوقفت بعدها بسبب الملاحقات الأمنية، ومن ثم جريدة (حريات) التي صدرت في آب واستمرت سنة ثم توقفت وتحولت لمركز إخباري متميز، وصدر العدد الأول من سوريتنا في مثل هذه الأيام من أيلول 2011، واستمرت أسبوعياً في نفس الموعد حتى الآن.

ومع تصاعد الثورة السورية على كل المستويات، وظهور الحركات المدنية والسلمية في بلد لم يعتد على حراك مشابه لأكثر من أربعين عاماً، وبالتوازي مع سوريتنا ظهرت الكثير من المبادرات من شباب مدني مستقل وآخر مسيس. اتجهت في معظمها إلى النشر الالكتروني، وتفاوتت في قدرتها على الاستمرار، فبعضها توقف بعد إصدار أعداد قليلة نتيجة الصعوبات الأمنية، وبعضها استمر. كما تفاوتت في حجم انتشارها وتداولها بين السوريين والقارئين بالعربية. كما أنها تفاوتت في مستوى تطورها.

مع استمرار الثورة، وبعد دخول سوريتنا في العام الثالث، بانتظام تام، نسعى اليوم إلى تعميق تجربتنا وتكريسها والعمل على تعميق الجانب الإعلامي الاحترافي فيها.. ونشعر بالمسؤولية أكثر فأكثر تجاه سوريا وكل ما يسعى منبرنا هذا لتقديمه لها وتكريسه.

نهاية، وعلى باب العام الثالث لا بد لنا أن نقدم جزيل الشكر والامتنان لكل من منظمة إنترنيوز الأوروبية، على دعمها الكريم لإطلاق موقع الجريدة على شبكة الإنترنت، وجمعية سمارت السورية، التي تعمل وبشكل أسبوعي على طباعة معظم جرائد وصحف الحراك السوري وتوزيعها في مناطق الشمال السوري، دون ملل أو كلل، رغم كل الصعوبات التي يواجهها فريق مركز الطباعة والتوزيع.. كما نوجه التحية لكل الإعلام السوري الحر، الذي يسعى بمجمله إلى بناء دولة الحرية والديمقراطية التي نريدها جميعاً.

الإعلام السوري الجديد

■ ياسر مرزوق

يقول جورج أورويل على لسان بطل روايته 1984 «ونستون سميث»:

«إنهم لا يريدون اعترافاته بل يريدون عقله لم يكن يهمهم أم يحصلوا منه على هتاف بحياة الأخ الأكبر، بل أن يعتقد أن الأخ الأكبر لا يمكن أن يخطئ كان ونستون يشعر بأن الشيء الوحيد الذي مازال يملكه حقاً ويسيطر عليه ويتحكم فيه وحده هو عدة سنتيمترات مربعة، هي مركز التفكير في رأسه وكان يشعر على نحو ما، أنه إذا استطاع أن يحتفظ بهذه السنتيمترات المربعة حية في رأسه، وأن يردد ما يدور فيها من أفكار ولو لنفسه وحده، فإنه يستطيع على الأقل أن يضمن أن يستمر».

وصف أورويل بشكل دقيق تحول القيم البشرية إلى أمور هامشية، ومن ثم سطوة الأحزاب السلطوية والشمولية على الناس والشعوب ليكونوا أرقاماً هامشية في الحياة بلا مشاعر أو عواطف بلا طموحات أو آمال، حيث يعملون كالآلات خوفاً من الأخ الأكبر.

اليوم سقطت أسطورة الأخ الأكبر وتحول الإعلام إلى فضاءات التكنولوجيا، هذا التحول ما كان له أن يحصل لولا السياسة الغبية التي انتهجتها الأنظمة من خلال القمع والكبت واحتكار وسائل الإعلام، ما دفع هذه الشريحة العريضة إلى البحث عن البديل التي يمكنها من رفع صوتها.

إن أقوى ما في وسائل الإعلام الجديد، أنها خارج سيطرة السلطات، فكل أسلوب لحجب المواقع كان يجابه بأسلوب تقني عصري يلتف على هذا المنع، وحتى أسلوب "الكي" أي قطع الانترنت بالمطلق، تم التغلب عليه عن طريق وسائل اتصال متطورة. إن نشوء هذا الفضاء الجديد من الحرية، ساهم في التحول النوعي الذي طرأ على استخدام الشبكات الاجتماعية على الإنترنت، من كونها أداة للترفيه، والتواصل الاجتماعي، إلى أداة للتنظير والتنظيم والقيادة، ثم إلى وسيلة فعّالة لنقل الحدث، ومتابعة الميدان، ومصدر أولي لوسائل الإعلام العالمية

في العدد الأول من سوريتنا كتبت الزميلة ليلى السمّان في افتتاحيتها: «هي سوريتنا التي سرقتها منا مقاعد مدارس علمتنا حياة القطيع والخوف بدل أن تعلمنا الحياة والحب، واغتصبتها شوارع غصت بالمخبرين الرابضين فوق مقابرنا كي لا نمر للجنة فنخبر الله بما فعلوه بنا...

هي سوريتنا التي عاشتها الأجيال في العقود الأربع الأخيرة كاستعادة لذاكرة من سبقهم دون أن يعرفوها.. فلم يرحلوا عن أوطانهم.. لأن أوطانهم هي من رحلت عنهم... وعبثت بذاكرتهم وقناعاتهم... غيرت توجهاتهم وتلاعبت بأشكال الحروف ليصير الجمال قبحاً والكراهية حباً... والخوف فراشاً نغفو عليه في نهاية يوم أنهكته الأحلام..

ولأن الصوت ارتفع، ولم يعد هناك طريق للعودة لزمن القهر والذل، كان لنا أن نشارككم بصوتنا الخجول، وسط أصوات الحرية والرصاص، حرية سوريا.. ورصاص جلاديها..»

اليوم تدخل سوريتنا عامها الثالث بعد أن خلعت وزميلاتها تركة صورة الزعيم ولي الرب على عباده، أو صانع الثورة والحياة وباني الدولة، وهو من بيديه لا بقوة شعبه شيدت المدارس ومدت الطرقات وبنيت المستشفيات وكتبت الكتب.

إعلام الثورة أو إعلام زمن الثورة يعيش جدلية مفادها أن الفكر لا يحيا ولا يظهر الابداع إلا في حضن علائق قوة مقاومة تقف ضد مقاومات تتخذ أشكالاً متعددة، وهي مقاومة مدنية بمعنى ما لأشكال الرقابة التي تحاصرها، بمعنى أن هناك أشكالاً من المقاومة لأن هناك أشكالاً من الرقابة، الرقابة التي لا يمكن فرضها داخل مجتمع من قبل أي سلطة دون إشباع وعيه العام بمسلمات، أو بإحلال حالة خوف حقيقي باقتطاع فئة معينة من هذا المجتمع وجعلها عدواً، والتنكيل بها لتكون عبرة للآخرين، إلا أن آلة الرقابة عجزت في أقسى تعبيراتها من محاكم تفتيش، وثورات ثقافية، وفتاوى دينية وايديولوجية وأنظمة مستبدة عن التحول إلى مؤسسة دائمة ومطلقة فهناك دائماً أصوات تأتي من حدود اللغة لتزرع الفتنة وزهرة فكرة الجمال.

عن كازانتزاكس أنقل:

«ربما كانت الكتابة لعباً في عصور أخرى: أيام التوازن والانسجام، لكنها اليوم مهمة جسيمة، لم يعد الغرض منها تسلية العقول بالقصص الخرافية أو مساعدة هذه العقول على النسيان، بل الغرض منها تحقيق حالة من التوحد بين جميع القوى الوضاءة التي لا تزال قادرة على الحياة حتى أيامنا الانتقالية هذه، والغرض أيضاً تحريض الإنسان على بذل قصارى جهوده، لتجاوز الوحش الكامن في أعماقه».

اليوم وفي صفحتنا هذه لنا أن نتوجه بالشكر لكل من قرأ وعلق وانتقد، لكل من شاركنا الأفراح والخيبات والانتظار، لكل من دعم الوليد الذي يحبو في فضاء الإعلام الحر، سوريتنا التي لا تقدم نفسها كإعلام بديل، بل كتجربة تتلمس إهاب الحرية، سوريتنا التي لا تقدم نفسها كناطق باسم فصيل أو تيار بعينه، بل هي صوت يشارك السوريين نداء الحرّية والعدالة والكرامة.

قال أحد الكتاب يصف تجربته في أحد معسكرات الاعتقال: «يمكن أن تقتل إنساناً ولكن لا يمكن أن تغيره، إن الإبادة كلحظة قصوى في عمر البشرية عاجزة عن تحطيم مناطق متغلغلة في كل إنسان وهي إحساسه بالكرامة والعدالة.»

في خضم حياتنا المعاصرة الخانقة يثور السؤال التالي، ماذا على الانسان أن يفعل، وتجيب سوريتنا، بأن ما يجب على الانسان المعاصر أن يفعله هو أن يرفض، أن يلتزم، أن لا يفقد الأمل، أن يقف في وجه التيار، أن يقاومه، أن يجاهد، في مقاومة هذا العالم الحافل بالمتناقضات والغرابة، «إني أرفض» نقولها في وجه العالم اللامنطقي، ولكن في الوقت عينه نحن نرفض الموت، نرفض الذل والمسكنة، نرفض التنصل والهرب، سنقف ونكافح من أجل أن تصبح الحياة أقل قسوة، كي يصبح هذا العالم عالماً جديداً، عالماً مختلفاً، عالماً يكفل للبشرية السكينة والعدالة.

مشوارنا طويل، وصراعنا ابتدأ مع بداية الانسانية في وجه الظلم والظلام ورافقها حتى يومنا هذا، عام 1909 كتب خليل مطران:

كسروا الأقلام هل تكسيرها يمنع الأيدي أن تنقش صخراً
قطعوا الأيدي هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزراً
اطفئوا الأعين، هل إطفاؤها يمنع الأنفاس أن تصعد زفراً
أخمدوا الأنفاس هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم فصبراً

صحافة الثورة
هواجس وملاحظات

■ شيرين حايك

مما لا شكّ به أن الإعلام السوري المكتوب شهدَ تطوّراً ملحوظاً بعدَ إندلاع الثورة السورية في آذار 2011. فانتقل من إعلام رسميّ وحيد مرتبط بالسلطة يعمل على نقل الواقع كما تراه الأخيرة إلى إعلام أكثر حيويّة وواقعيّة. العديد من الجرائد والمجلات والنشرات المحليّة الخاصة والتي تصدر عن شباب مدنيّ يعمل بشكل مؤسساتيّ بدأت تظهر وتعتمد كمصدر معروف للأخبار والمعلومات. لكنّ هذا التطوّر الذي أتى بشكل سريع جداً في المراحل الأولى من الثورة دخلَ في طور الثبات في العام الثاني منها لأسباب عديدة ظهرت بأوجها مع الدخول في بداية مرحلة التسلّح في الثورة.

لربما صحّ القول بأن أحد أهم أسباب دخول الإعلام السوري المكتوب ضمن مرحلة الثبات هذه هو إرتباطه المباشر بالمثقفين السوريين سواء كانَ ذلك باللغة أو الإسلوب. المثقفون السوريون الذين كانوا، ومازالوا، أبعد ما يكون عن الثورة الحقيقيّة في الشوارع والحارات السوريّة. الثورة فاجأت جميع من كان يتمناها وعلى رأسهم المثقفين الذين أنقسموا بينَ مؤيّد للثورة وغريب عنها. أمّا الثورة فقد فضّلت النزول إلى الشارع والحياة مع البسطاء في أحيائهم الفقيرة ولغتهم المحكيّة البسيطة على الجلوس بينَ الأدباء والمثقفين في مقاهيم وندواتهم. أتى هذا بشكل خاص بعدَ تحوّل الثورة إلى مسلّحة وهجمات النظام للأحياء الشعبيّة بشكل وحشيّ زادَ من الفجوة الثقافيّة بينَ هذه المجموعات. لذا كانَ من الصعب على الإعلام المكتوب أن يستمرّ بالإعتماد فقط على المثقفين ولغتهم، وكان من الأصعب عليه التخلّي عنهم بالأخصّ أنهم كانوا جمهوره الأوّل بشكل طبيعيّ.

هذا من جانب، من جانب آخر فإنّ عدد قرّاء المقالات الطويلة يعتبر ثابتاً، أن لم يكن بتناقص، بالمقارنة مع تطوّر التكنولوجيا اليوم. فقد أصبحَ بالإمكان نقل الفكرة التي كانت تستغرقُ مقالاً منذ سنواتٍ بلافتة مظاهرة أو بوستر يحوي أقلّ من عشر كلماتٍ ويمكن قرائتها بأقلّ من عشر ثوان. الإعلام السوري المكتوب لم يراعي ذلك بل إعتمد على ملئ الفراغ الناتج عن القمع في الأربعين سنة الماضية وفضّل المقالة الطويلة والكلاسيكيّة على المقالة القصيرة والسريعة والتي يمكن قرائتها وتناقلها بأقلّ من خمس دقائق.

مسألة إضافيّة لعبت دورها في تهميش الإعلام المكتوب في الثورة هي عدم وجود فوارق حقيقيّة بينَ مجلة وأخرى، جريدةٍ وأخرى. معظم الصحف التي ظهرت في ظلّ الثورة تكتب بنفس الأسلوب وتحتَ نفس الأبواب وتستهدف نفس الجمهور، وفي كثير من الأحيان يمكننا القول أنها تعتمد على عدد معيّن، مشترك، من الكتّاب هم نفسهم من يكتبون لمعظم هذه الصحف. هذا ما جعل الروح الكليّة واحدة ومتشابهة ما يكفي أن لا يكون هناك جديد منتظر بينَ صحيفةٍ وأخرى.

غياب التمويل المباشر يعتبر أيضاً واحدةً من المشاكل التي تحدّ أيّ صحافةٍ من الخروج فقط من مقالات الدائرة الأولى من الأصدقاء والمثقفين والمعنيين الذين يمكن لهم أن يكتبوا مقالاً شهريّاً بالمجان أو إعادة نشر المنشور. هذا يأتي بشكل خاص ضمن ظروف الحياة في سوريا اليوم وغياب الدخل عموماً وشبه التوقف الكامل لمصادر الدخل الخاص كذلك، مما يخلق حاجةً للتوجه نحوَ الإعلام المدفوع عن ذاك المستكتب بالمجان.

النقطه الأخيرة هي الإنتشار، معظم الصحف السورية ينحصر جمهورها بشريحةٍ معينةٍ من السوريين وهو أن تراوح بينَ عدّة شرائح سوريّة يبقى محصور ضمن الجو السوري - السوري. هذا ما يجعل من زيادة الحديث في الشأن السوري يدخل ضمن دائرةٍ مفرغة من التسليم بحقائق معيّنة تصبح بديهيّةً بالنسبة للكتّاب والقراء السوريين وغير مفهومة ما يكفي بالنسبة لقارئ يتابع الشأن السوري بشكلٍ عاديّ دون أن يكون منخرط بالبديهيات المتعلقة به. الأمر الذي يشكّل نوعٍ من أزمة تواصل بين الصحف السورية ضمن الثورة والقرّاء العرب عموماً.

سياحة الإعلام الغربي في بلادنا
تنافس محموم على استباحة سوريا

■ آكاسيا العاصي

"نحارب الحرب بالحب والفن": قالت مدربة رقص سورية وهي تمسك بيدي شاب تعلمه رقصة السالسة على أنغام الموسيقا الكوبية، في المركز البلغاري بحي المالكي!! هذا ما طالعتنا به قناة فرنسية دخل مراسلوها دمشق بإذن من النظام وسمح لهم بالتجول والتصوير في شوارع دمشق، بينما قد يتعرض أي سوري لخطر الاعتقال إذا ضبطت معه كاميرا، حتى لو كان يصور نفسه!! إذن سمح لهؤلاء المراسلين بالتصوير والالتقاء بالناس، فخرجوا بهذا التقرير الصادم من قلب مدينة محاصرة بالموت، ولا تكف مدفعية النظام عن التهام أطرافها، فالذين ظهروا في التقرير لا يواجهون حرب النظام على الشعب، بل يواجهون التهديد الدولي بمعاقبة النظام لاستخدامه السارين في قتل أطفال الغوطة.

مشروع تعليم الرقص بدأ منذ سنتين مع اندلاع "الحرب" بحسب التقرير الذي يؤكد بشكل ما على أن التي بدأت قبل أكثر من عامين في سوريا كانت حربا وليست "ثورة"، وقد قرر هؤلاء "محاربتها بالحب والرقص والغناء والترويح عن النفس بالملاهي"!! يستطرد التقرير في انتقاء اللقطات الصادمة، فيجري لقاء مع سيدة دمشقية (سنية بدليل الحجاب) تغني في ملهى ليلي، فتتحدث عن أسباب ارتيادها لهذا المكان في باب توما (الحي المسيحي): "نأتي لنرقص ونغني لأن الأوضاع عندنا سيئة جداً، نتسلى ونبتهج بعيداً عن الأجواء في الخارج" وهكذا تقسم دمشق إلى داخل بارد تحت جناح النظام، حيث الرقص والغناء، وخارج ساخن حيث الإرهابين والحرب والقتل؛ ففي الخارج يقبع سوريون خونة وإرهابيون جاؤوا من الخارج الأبعد، في حين يلوذ في الداخل البارد سوريون "شرفاء" من مختلف الطوائف بمن فيهم الأكثرية السنية، لا طائفة النظام وطوائف الأقليات الموالية وحسب، وإذا شئنا المضي أكثر في قراءة الرسائل التي تضمنها التقرير سنعثر على ما يحرض على الدمشقيين وبشكل فاقع!!

يمكن القول: لو أن قناة الاخبارية السورية أو قناة سما عرضت هكذا تقرير، لنال علامة الصفر بالحرفية، لكن بما أنها قناة فرنسية معروفة، ووفق مقولة "كل شيء فرنجي برنجي" يصعب التشكيك بحرفيتها، كما أنها لم تكذب، ولم تلفق، فتلك الشريحة من الناس موجودة، وتعاني من القلق والخوف كسائر سكان البلاد، وتلك المحلات أيضاً موجودة وربما زاخرة بالرواد من مختلف المشارب، لكن كل ذلك جزء صغير من المشهد العام في دمشق، وتعميمه على هذا النحو، قصر نظر إن لم نقل إنه تضليل بعينه.

إذ لم يتضمن التقرير سوى إشارات غامضة إلى وجود شرائح أخرى غير تلك الشريحة المنتقاة بعناية، للتمجيد بأعمال جيش النظام، فبدا كما لو أن كل سكان العاصمة يمضون ليلهم بالرقص والغناء والانشراح، لا مجرد فئة محدودة منتفعة من وجود النظام، بينما الغالبية المتضررة تقبع في بيوتها "مرغم أخاك لا بطل"، لانعدام الأمن وأيضاً لضيق ذات اليد، حيث لم يقدم التقرير إجابة على سؤال يفرض نفسه من أين يأتي هؤلاء بفائض المال لبذله في الملاهي، في الوقت الذي يرزح فيه أكثر من 70 ٪ من السكان تحت خط الفقر، ويعتمد أكثر من ستة ملايين سوري على الإعانات، كما لم يقدم إجابة عن الساعة التي تغلق فيها البارات والملاهي أبوابها، في مدينة قطعت أوصالها بأكثر من 400 حاجز عسكري، لرصد حركة السكان وعد أنفاسهم!.

قد لا تكون القناة الفرنسية معنية بتلك الإجابات، لكننا نحن حتماً معنيين بتفنيد دعايات الإعلام الغربي، فالتقرير أوحى بشكل ما أن هؤلاء هم سكان دمشق عموماً لا شريحة معينة، دأبت على تصدر شاشات إعلام النظام بوصفهم السوريين "الشرفاء" المدافعين عن الوطن، ويجتاحون المولات التي خلفها الأثرياء وراءهم في المالكي وكفرسوسة ومقاهي ومطاعم أبو رمانة والشعلان وباب توما. كعمل وطني للتأكيد أن الحياة تسير بشكل طبيعي، كما لم يتوقفوا يوماً عن الرقص على الشاشات المحلية والدولية، ومؤخراً أطلقوا حملة "يا أوباما خريها" في طريقة مبتكرة للدفاع عن النظام، هؤلاء حتماً يطربهم تهدج أصوات أطفال الغوطة وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، لأن كل ريف دمشق بنظرهم حاضنة للإرهاب يجب مسحها وتسويتها بالأرض، ولا يرون في التسليم المذل للسلاح الكيماوي، انتهاكاً للسيادة الوطنية، بل يعتبرونه انتصاراً سياسياً ساحقاً على قوى التكبر العالمي، ولا يجللهم الخزي وهم يرون روسيا ترسم مصير نظامهم وفق مصالحها، بل يصفقون لمواقفها، وبالقدر نفسه وربما أكثر يهللون لإيران إذ تعلن سوريا محافظة إيرانية!! ولذا من الطبيعي أن يرقصوا ويغنوا ويقاوموا الحرب بالرقص، عندما يكون معيار الوطنية بقاء النظام ولو على الخراب، لم لا؟ إذا كان هذا النظام حصراً الضامن الوحيد لديمومة متعتهم وملذاتهم!! فقد سبق واختزل الإعلام الرسمي حرية السوري بعودة المرأة إلى البيت بعد الثالثة فجراً وارتدائها ما قل ستراً من الملابس..

وجاء تقرير القناة الفرنسية ليؤكد هذا المفهوم للحرية باحترافية أكبر، إذا أحسنا الظن، لكن إذا أسأناه فلنتمعن فيما يلصق بالدمشقيين من موالاة للنظام وتأييده للقتل، التهمة التي سبق وروجتها وكالة الأنباء العالمية "رويترز" في تقرير لها عن حقد أهالي ريف دمشق على سكان مدينة دمشق، وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، في حال انتصرت الثورة!! لأنهم لم يثوروا على النظام، وذلك دون أي إشارة إلى أن سكان دمشق من أكثر من عقدين نزحوا إلى الريف بسبب الوضع الاقتصادي، حيث باع معظم الدمشقيين منازلهم في العاصمة واشتروا عدة منازل للأبناء في الريف، ودون أي ذكر للتجار الشوام الداعمين للثورة الذين دمرت مصانعهم ومشاغلهم بشكل ممنهج واضطروا للفرار. وتجاهل المظاهرات التي انطلقت بداية الثورة في مختلف أحياء دمشق المرجة الميدان المزة وركن الدين والصالحية والقابون وغيرها..

يصفون الدمشقيون بالانتهازية وإلحاقهم جميعهم جملة واحدة بالنظام، كما سبق وألحقت طوائف الأقليات الدينية جملة واحدة، بزعم ارتباط مصالحها مع النظام حامي الأقليات ومصالح رأس المال، في تكريس مبتذل لمختلف أنواع الانقسامات والتشظيات داخل المجتمع السوري. ثم يأتي الإعلام الغربي ليمهر تلك الانقسامات بأدلة عليها توقيعه، في تقارير سياحية، استشراقية، لإثبات تصوراته المسبقة، كي لا نقول خدمة لأجنداته الخاصة.

وهذا ديدنه منذ انطلقت الثورة السورية، فحين كانت المظاهرات ما تزال سلمية ويشارك فيها مختلف أطياف المجتمع، ويقوم الناشطون بضخ سيل من مقاطع الفيديو كان الإعلاميون في الغرب يعكفون على التنقيب في تلك الصور عما يؤكد الطابع الطائفي للثورة، وكان التركيز على انطلاقها من المساجد، وعلى المنقبات حتى حين علموا أن النقاب كان وسيلة للتخفي في ظل نظام جائر، ولاحقاً كان التركيز على أصحاب اللحى ورايات القاعدة، وقاطعي الرؤوس و.. إلخ من رموز وكل ما ينتزع عن الثورة طابعها المدني، لتأتي اليوم القناة الفرنسية وتبرز الطابع "الإنساني" الراقي العاشق للفن والرقص الذي يتمتع به مجتمع الموالين للنظام في مواجهة "وحوش الثورة الدموية"!!

وهنا نتذكر أنه قبل بدء الولايات المتحدة الأمريكية حملتها العسكرية على العراق عام 2003، بدأت حملة إعلامية واسعة تركزت على وحشية نظام صدام حسين، وخاضت أقلام الإعلاميين في رواية قصص فيها من الأساطير أضعاف ما فيها من حقائق، لتبرير حجم التدخل العسكري الدولي، واستباحة العراق، وقرأنا عشرات التقارير المضمنة خرائط ومجسمات لمخابئ وسراديب سرية بناها في أعماق الأرض مجهزة بكل وسائل الحياة الكافية لعدة أشهر، وتقارير أخرى عن قصور صدام وحصانتها، وفوجئنا لدى احتلال بغداد بأن سقوط القصور كان على أهون سبب، أما السراديب الخرافية فلم تكن أكثر من حفرة أشبه بالقبر، في مزرعة فقيرة.. لتكون تلك نماذج من إعلام غربي احترف التضليل، سرعان ما تحولت بعد احتلال العراق إلى التركيز على الجماعات الدينية المتطرفة التي قاومت الاحتلال، لتبرير النهج الطائفي لسياسة النظام الجديد الذي تم فرضه، بموجب التوازنات الإقليمية والدولية، وهكذا تم طمس الوجه المدني للمجتمع العراقي، وإبراز الوجه الطائفي المتعصب، ولو تابعنا نشرات الأخبار جميعها نادراً ما نقع على صورة لامرأة لا ترتدي الشادور!! وكأن العراق بأكمله من الشيعة المتدينين ولا وجود فيه للشيوعيين والبعثيين والعلمانيين وغيرهم!!

اللعبة ذاتها تتكرر الآن في سوريا، إذ يعمد الإعلام الغربي إلى التضليل لتبرير سرقة الثورة وامتطاءها، في مزاودة دعائية مفضوحة بينه وبين النظام حول تطرف الثوار وتوحشهم، ولكل منهما دوافعه أوضحها التنافس المحموم على مواصلة استباحة سوريا للأبد.. إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا..

إلى سوريتنا

■ مثنى مهيدي

كالتائهين. كفوج من العُميان. يدورون حول أبواب قطار
يعلم التائه وجهتَه جيداً. لكنه يجهل الطريق.
يملؤه اليقين بتفاصيل الهدف. لكنه حائرٌ في صحراء مألوفة.
نعلـم الكثير عن الكثير مما لا رجـاء منه. ثم نجهل القليل عن الكثير مما فيه الرجاء
على أن جهلنا قد يكون قراراً. كالموت.
لا قدراً. كفكرة الموت
وقد يعشق الفقراء فقرهم. إذ يكون سبباً في تفوقهم
تفوقهم على الزمان وغدره.
على عذاب الموت وقبره.
وعلى طمع الغني ودهره.
هكذا كنا. ندّعي أنّا نحب الوطن أكثر. إذ نعلم عنه أكثر.
الوطن. في حب الظالم رغم ظلمه. الوطن. في شرب الماء رغم قذارته
ندّعي حبّه بسخرية من جوره.
كحب الأم للوليد. لا ننتظر شُكراً ولا ديّة
لكن.
تلك اللحظة المجنونة. عندما يبتسم الزوج المتعب. لزوجته التي تُداري
عندما يُقبّل الحبيب زير النساء. عشيقته المتوسطة الجمال
عندما يحنو مسحوق التجميل الغالي الثمن. على وجه ابنة الريف.
عندما يعلم الحالم على وجه اليقين. أنه داخل حلم
تلـك اللحظة. عندما يردّ الوطن هذا العشـق على عاشـقه. لـذّةً بطعم ليلة جنس أخيرة
عندما يعلن الوطن أنه يلعن تجارب الإله في عباده
يُبصر العُميان مدخنة القطار
يُبصر التائه نجمةً يعكس وهجها نوراً على رمل الصحراء
تلك اللحظة
عندما بدأت سوريتنا.

بعد ثلاث سنوات..

■ عروة مقداد

كان يلزمني 3 أعوام ربما لأفهم، أن هنالك فرق بين الصورة التي نحلم بها، الرومنسية التي تسمنا بها الروايات والأفلام وقصص الجدات ومخيلة الطفولة، هي غير الواقع المرير الذي نعيشه. كنت خلال الأعوام الثلاثة أحاول أن أجمل الواقع بكل تلك القصص والحكايا والأمجاد والبطولات. منذ المقال الأول الذي كتبته في جريدة سوريتنا رحت بمرارة أحاول أن أجمل الصورة البشعة التي كنت أراها أمامي، الصورة المكونة من ملايين البلورات لخليط متناقض وغريب من أمزجة وأهواء متناقضة تعكس محيطاً مترهلاً ومتناقضاً.

ومنذ الحلم الأول الذي تشاركناه على صفحات هذه الجريدة، صرت متأكداً اليوم أننا لم نكن يوماً نعيش في وطن، وأن رحلتنا الطويلة تلك كانت ليس في الحفاظ على الوطن وإنما هي حلم في إيجاده. بتُ متأكداً أننا جميعاً قد تغيرنا، وأن الموت قد حفر أثلامه فينا وقطع وريد الحياة التي كانت تمر أحياناً ببساطة. بت أعرف جيداً أن الحنين إلى تلك الخديعة الكبرى التي مارسناها طوال سنين حياتنا، خديعة الحياة الوديعة والهانئة والأحلام الصغيرة المجترحة بملل كبير، ما هي إلا صدى خديعة كبرى، وأننا نحن من تعلمنا ومن درسنا ومن كان يطلق علينا اسم مثقفين كنا أكثر من خدع الناس البسطاء ومن تخلى عنهم في محنتهم، وأن الثورة ليست كما رحنا نصورها، أحلام وريدة وأمجاد وقصص مليئة بالحب والعطف والحنان، وليست كما وصفته الروايات والشعر، وليس كما يصفها الحكائين في المجالس على أنها مزيج من السحر والدهشة.

ندفع الآن ذلك الثمن الباهض لكل السوريين الذين تواطؤوا يوماً مع مشاريع غريبة، أو مشاريع ذاتية، ندفع ثمن تهميش وتفقير وتدمير المجتمع السوري الذي بات الآن عرضة لأيديولوجيات كثيرة تتصارع على هذه الأرض، نسهل لتلك الأيادي بأن تعبث بنا عن قصد أو عن غير قصد.

نحن جميعاً بتنا مسؤولين عن تلك المجازر التي حطت على أرض هذه الجغرافيا الغريبة، من منا يستطيع أن يتهرب من حمل المسؤولية، من منا يستطيع أن يقول أنه قد قدم كل ما لديه من أجل حياة أجمل وأفضل للسورين. وحدهم الشهداء من يملكون هذا الحق الوحيد بأن يصرخوا بوجوهنا ويقولوا ماذا فعلتم عندما أورثناكم هذه الحياة لتجعلوا منها مكاناً أفضل.

أن تقول اليوم أنك سوري وأنك تنتمي إلى هذه الجغرافية المتناقضة بكل مشاكلها التاريخية والإيديولوجية فأنت الآن في خضم حرب لا هوادة فيها، حرب يطالب كل منا الدفاع فيها عن أحلامه وعن صناعة وطن أفضل. وطن يثبت يوماً ما أننا تمتعنا بحس إنساني ليس من أجل جني مكاسب في وطن يعدنا بوظائف عمل ومكاسب مادية، إنما وطن يثبت يوماً في التاريخ أننا تمتعنا بذلك الحس الذي يصنفنا عن باقي الأنواع الموجودة على الأرض وهي أننا أناس نتمتع بذلك الجوهر الإنساني الذي يثبت أننا حقاً بشر.

أن تثق بالكلمة ذلك رهان كبير، أن تثق بالكلمة في وقت لم يعد فيه أحد يصغي إلا إلى صوت القذائف، يعني أنه ثمة من يؤمن بأن التكوين الغريب من الممكن أن يرتقي. ولكن أيضاً من الممكن أن تكون الكتابة والقراءة ترف لا يتمتع به الناس الذين حوصروا أو عذبوا أو شردوا. ما جدوى الكتابة الآن؟ كنت أتساءل وأنا أطل على سورية من أعلى ارتفاع في جبل الشيخ حيث التمعت الأضواء الحزينة لبلد يقطع بمبضع حاد لطبيب مختل يشاركه حفنة تجار الأعضاء. وأضاءت القذائف تلك المساحات المطفأة لبيوت كامدة حزينة تلهج بالدعاء الخفي ليحميها من الموت الحاد عندما تصفر القذيفة وتنزل حادة لئيمة كامدة، فتتحول الحياة إلى رقابة طويلة في انتظار الموت. سؤال أجابني عنه من لم يقرأ يوماً في أحد البيوت وتحت صفير القذائف الذي يبعث بالجوف دُمّة رهيبة: اروي قصصنا واكتب عنا ليشهد الموت على أننا لم نكن مجرد أرقام.

منذ 3 سنين، وكلما عادت بي الذاكرة إلى اللحظة التي ولدت بها الجريدة، كنت أعرف أن ما فعلناه كان لبنة في بناء الوطن الذي لم نعشه يوماً، وأجدني مديناً في كل مرة لذلك الرجل الذي شاركني به ذات مرة. الرجل الذي كان وفياً لحلمه الذي لم يتخلى عنه بالرغم من كل الصعوبات التي واجهت الجريدة. وأفكر في المغزى من كل ذلك، اللقاء في شوارع دمشق، الاجتماعات المتكررة التي عقدناها، النقاشات، المنفى الحنين، النزق الذي مارسناه على بعضنا البعض، كل ذلك يفضي بي إلى أن الجريدة كانت جزءاً من تلك الحرب التي نخوضها. وأشعر في كثير من الأحيان أن هذه الجريدة تشبه الوطن، فلم تستطع العيش حتى هذه اللحظة لو لم يكن ثمة من يدافع عنها ويحارب من أجلها.

لكنّهم أحبابيَ الموتى..

■ هالا محمّد

أودُّ
تنسيلَ ذكراهم من عُرى روحي
ليضيعوا
كأيّ زرٍّ عتيقٍ
في مكانٍ ما
مِنَ المَطبخِ
مِنَ الفِراشِ
منَ الطريقِ.
أودُّ
حينَ يَجيئونَ وَيعبثونَ
بقوارير عِطري
وَتَختلطُ الروائحُ
بالغبار
بالهوى.
يُعيدونني إلى ما أظنّهُ انتهى.
وَدونما وَعيٍ
أعلّقُ إصبعيْ
في عُرى معاطفهمْ
أبكلها كي يَصحبوني
أينما ذهبوا.
أودّ
تَطييرَ ذكراهُمْ، بمحرمتي
عَنْ إفريزِ ذاكرتيْ.
لكنّهمْ أحبابيَ المَوتىْ

***

هل يموت الميّتْ، هل يبتعد عن داره ومطارح اللعب والحبّ ودورة العادات في الزّمنْ. عن الصباح والنهار والليل والأغاني والذكرياتْ. أيحيا من يحيا وسط كل هذا الموتْ. هل يحيا القاتلْ! أم يموت في موت الضحايا. ويحيا القتلْ. العدالةْ، ماهيَ العدالةْ وسط هذا الخراب والعدمْ. أهيَ المُستقبلْ.

والتسامح! أهو الأملْ والإيمان العميق بالمواطنة المتساويةْ في لحظة ابتعاد الذات عن الغرور بالذاتْ، والتعالي على ذات الآخرْ.

والحقيقةْ! كيف يتقاسم القاتل والقتيل أبناء الوطن الواحد الحقيقة ذاتها، فتنفلق حبّة الحقيقة إلى حقيقتين وعدالتين. إلى حقيقة القاتل وحقيقة القتيلْ. عدالة القتيل وعدالة القاتلْ.

فلا تقوم العدالة بدورها، لا تُنصف بينهمْ، لا تدلّهمْ على بوصلة الخلاص.. كيف تكون الرؤية في بحر النفاق والتخلف والكذبْ. أتبقى زهرة الصّدق بسيطة كالماء في العين.

الوطن.. ما الوطن، ما الانتماء؟ وإلامَ؟

ما هيَ السعادةْ..

هل هيَ حقّاً جوهرالفَرَحْ، أم جوهر الانتصار.

والانتصار.. هل هو صوت الحقّ أيضاً وسط صوت العنف الطاغي والفعس علي إنسانيّة الآخر الشريكْ في الإنسانيّة والبلد والكرامة والشارع والغدّ والمعرفة والأملْ.

الكرامة، كيف يمكن أن تكون بهذه الطيبة والجرأة.. وحقلاً لمرمى سهام الخسارات الجارحة والجوع والإهاناتْ والتشرد والنفي واللجوء والضعف والذلّ. كيف لا تكون الكرامة كرامةْ. ماذا تبقّى من المشتركْ الأخلاقي إذا كانت الكرامة ليست أرضاً مشتركةً للأخلاق. والأملْ..

كيف يقارع الخوف بابتسامة وثقة ووردة حمراء وزجاجة ماء ومطر.. يزخّ بلا توقّف في الرّوح يحميها من العنف والاستسلامْ والضياعْ.

***

هل قبوركم مريحة وحنونة كقبورنا: تقول طفلة في خندق المجزرة الجماعية من داخل كفنها في بلدة الحولةْ.

تخاف أن تكون قد ماتت، تهزّ روحها بأرجوحة من الذكرياتْ، تتلفتْ طفلة الغوطة الشرقيةِ في الكفن: مرج أبيض من الأبيض هنا في الغوطة الشرقيّةْ.. ال.. خ.. ض.. ر.. ا.. ء. كلمة " الخضراء " ترهقها. تتأمّل الكلمة حرفاً حرفاً. موتنا كان أخضر وأصفر، وأنتمْ..؟

تضحكْ.. الطفلة من الحولةْ في الحولةْ. فتضحك الطفلة من الغوطة الشرقيّةْ في الغوطة الشرقيّةْ.

القاتل.. يلتصق بالتراب، يصغي إلى أبديّة الصّمتْ.

يشعر بالنصّر. العسكري القاتل العبد المأمور الفقير المرمي في غابة القتل، كقاتل، يشعر بالنصر، يرفع يديه للسماء فيرى زرقتها والفضاء الواسع الذي يلفّ الأرض والصّمت المُطبق، ويهوي على التراب.

يستلقي فوق القبر، يحرسه ضحاياهْ.

عمل للفنان: منذر المصري

الطفلة: هل أنت القاتلْ.

العسكري: لا القاتل إرهابي. أنا أقتل الإرهابيين القتلةْ.

الطفلة: كنّت أحبّ أن أحيا في سوريا. أن أكبر. أن أحبّ. أن أتعلم.

العسكري: "صمت"!.

الطفلة: وأنتْ.

العسكري: أنا أيضاً كنت أحبّ أن أكبر في سوريا وأتعلم وأحبّ.. وأحيا.

الطفلةْ: أنت صغير!

العسكري: "صمت"!.

هل ترى بيتاً! عليه حبل غسيل ملوّنْ.

العسكري: أرى حبل الغسيلْ.

الطفلة: "صمت"!.

حبل الغسيل: إلبس ثيابي واغتسل بضوء السماء يا بنيّ.

العسكري: عارٍ.

حبل الغسيل: عارٍ.

السّماء: تمطر..

يغتسل الرجل العاري.. يغتسل ويبكي.. ويصرخ في هذا العَدم.

ينام فوق القبر.

يشعر بالبرد.. تمدّ له الطفلة طرف الكفن.. يلفّ به جسده وينامْ بأمانْ..

مرثية أخرى كي تكون سوريتنا ما نريد

■ شام داود

خربشات إلى أصدقاء الكلمة.. إلى فريق سوريتنا هناك.. في دمشق القابعة في روحي بانتظار العودة..

سنة ثالثة من حلم، سنة ثالثة من عطاء. سنة ثالثة من أمل.. مع الحب..

كطفل يحبو على أرض وعرة، تعبر سوريتنا نحو سنتها الثالثة في أسبوع دموي آخر مر على سوريا الحرية التي صرخت مخاضها دماءا على ترابها ومقابرها التي اتسعت كسماء.

عندما نطل على الطفل في ذاكرتنا، نحن أطفال هذه ال"سوريا" القابعة في نبع قريب نرى أنفسنا حالمين ساذجين وكأن الذاكرة انتزعت صور الدم والمقابر القريبة واحتفظت فقط بصفاء عيني جارة وضعت للتو مولودها الجديد.

كحلم متعثر وحروف في مواجهة فوارغ الرصاص التي تسطر مرة أخرى حلم ذاك الشعب. لم يطلق هذا الإعلام الذي يقاوم بالكلمة لا بالرصاص نظام الرعب وما يفرز اليوم عنه من استبداد جديد بمسميات عدة، إلا أنه يبدو لوهلة ومنذ اللحظة الأولى كوجه شعب يوجه مدافعه في وجه ذات الاستبداد رافضاً أن ينصاع لنظام القبيلة والعائلة.

مايتساقط من ذاكرة سوريتنا على مدى أربع وعشرين شهراً، قمرٌ كحزنٍ صافٌ، وقوس قزح، ومستحيلات.

تلك الصفات المتكسرة التي تصنع منّا ما نحن عليه، أحاول أن أحفر أكثر في جدار الذاكرة لكنني لا أذكرُ من والدي سوى قلبه الكبير.

أتتسع سوريتنا لذاك القلب؟ لذاك الكّم من الحب الذي نحمله لها نحن أبناءها العاقون، المتعثرون دوماً على صفحاتها كشاب ملول لا يهدأ.

كيف ستكون سوريا لولا الحب، كيف ستكون الثورة دون ذاك الحب ذاته، وبإسطوانة رتيبة للتساؤل كيف نقوم نحن العابرون في سوريا بثورة دون الكلام، دون ورق وحبر يندثر في الظلام لكنه يشرق شمساً بحبور..

لا يتسع الورق لكثير من الكلام عن تجربة من أقصاها لأقصاها لا تزال بذارها خانعة في أرضٍ تُرابها سبع حضارات وكثيرٌ من الحزن المقيم..

لا يتسع الورق لسوريتنا فما بالنا ببضع من مقال نحتفي به كما نحتفي بصديق عادَ بعد غياب، لنكتشف بعد هنيهة أن ذاك الصديق هو مجرد قصصٍ من حنينٍ واهمة.

يبدو ذاك الحلم الواهي بعيداً اليوم أكثر، قاسياً وصارماً، مغلفاً بكثير من الحزن والفقد الذي لا يُرى، لكن غضب مقلتي طفل في عدسة صحفي كافية لندرك.

في فوضى الإعلام وفوضى الثورة اللامرئية، في فوضى الموت، يبدو الجديد لنا خارقاً، لكن مع تقدم الجديد بثبات تبدو العيوب أوضح وأكثر انفلاتاً مما مضى، في تجاذب الأضداد وتبعيات نظام القبائل التي تخترق جسد سوريتنا تزداد الصورة قتامة وتنهمر كلمات اللاجدوى باستماتة وكأن الكثير من الحبر الذي سال لا يعدو كونه نبعاً من شريان شهيد لا ينضب.

وبرغم المراثي.. إلا أن الطفل يحبو ويأبى الرضوخ.. كالقمر الذي يعود كل ليلة.

لا يتسع الورق للحلم، لا يتسع للطفولة، ولا للثورة أيضاً.. لكنه يتسع لسوريا بكل تفاصيلها وسماواها.. بكل أبهتها وجمالها وأنوثتها الطاغية.

سوريتنا التي نريد، أكثر من حلم وطفل وثورة، سوريتنا التي نريد أوسع مما أنجزنا وأوسع مما سننجز، سوريتنا التي نريد هي ذاك الحب الإلهي الذي يبدو فيه حنظلة في ريشة ناجي العلي سورياً بغرابة وجدية شديدتين.

سوريتنا التي نريد، تريد منا الكثير بدورها، هي فعل كردة فعل، وهي أيضاً أم لم نلتقيها قط، لكنها تسمرنا بنظرات صارمة كلما حدنا عن الطريق لتعيدنا إلى خط البداية بثبات وعناد سيزيف وخصوبة عشتار..

نرثيها بعد كل وداع لتولدَ من جديد كقيامة من طين. نرثيها كلّما خطت حرفاً كي نعيدَ ولادتها بإتقان خطاط ثورة محترف.

نرثيها كي تعيش. نرثيها كي تكون، لايعدو الرثاء كونَه نقداً كفعل كتابة، قليلُ الأهمية أمام الأثر الذي يحفره فينا مرآها في يدي إمرأة سوريّة في قرية لم نسمع بها من قبل، أوعلى حضن شاب عاقد كفيه على بندقية يتأمل كلماتها بانتباه، أو في أكف رجال سطّر الحزن أخاديداً في محيّاهم ذات ثورة.

نكتبها حتى لا نرثي الحب فينا، نكتبها كي تكون الكلمة سوريتنا، وسوريتنا الكلمة.. التي نريد.. كي لا نكون سوى أحراراً بها ولها..

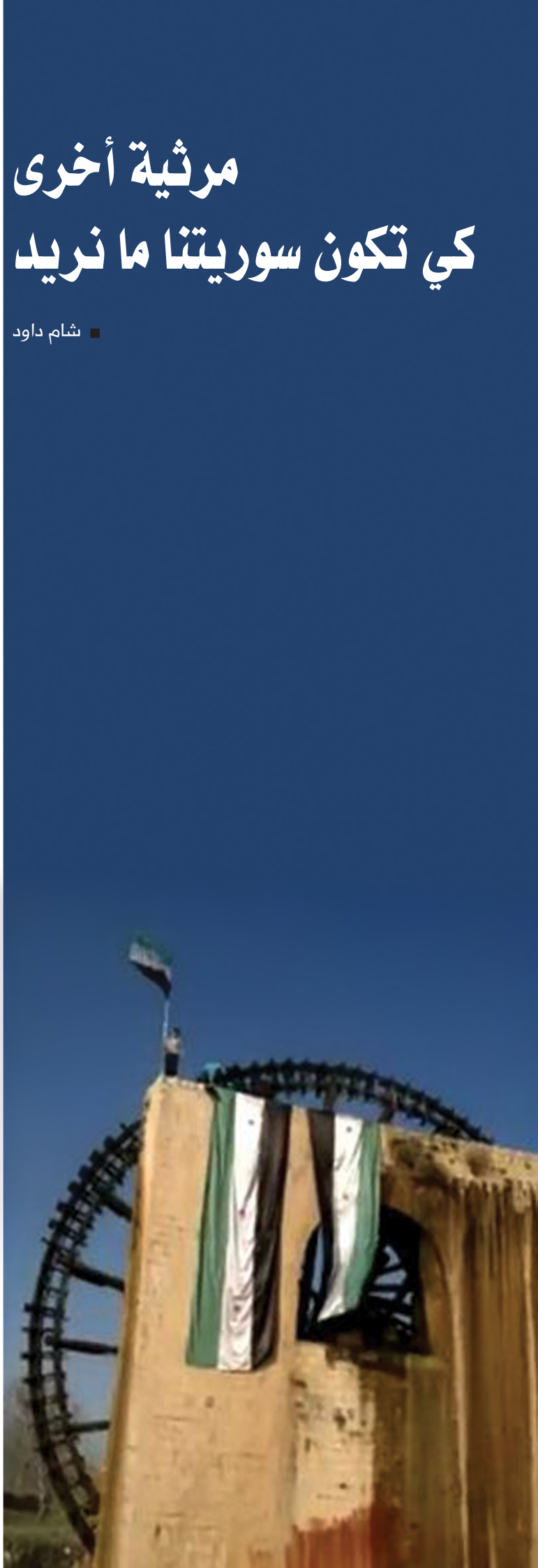

بيروت، موتُنا الثاني

■ دلير يوسف

"إذا كان لا بـدّ لنـا من موتٍ فليكـن هناك، في دمشـق" قالها ثم أزاح بناظـره إلـى البعيد، كـي لا أرى تلـك الدمعـة المتعلقة بأهدابـه، المتأهبة للسقوط في أي لحظة.

هي حال الشـباب السوري في بيروت، تراه سـعيداً، يرقص ويغني ويرفع كأسـه عالياً دون أن يأبه بالموت الدائـر في بلاده، لكن مـا أن تحدثه ترى الحـزن المختبئ في داخله. ترى حالة الهروب التي يعيشـها من واقع ممتلئ بالعنصريّـة والشـقاء من أجلٍ لقمـة العيش، بالإضافة إلـى حالة الحَرب في سوريا التي تشكل ضغطاً هائلاً عليه.

"بيروت، أقسى المنافِ على كوكب الأرض أن تحدثنا عن السوري" بيروت مدينة من شـاء إلا السوري، إذ تراه يفترش أرصفة الميناء أو تحت الجسور مع عائلته، يبحث عن سقفٍ وجدرانٍ يحضنها دون جدوى من البحث.

بيروت مدينة منظمات المجتمع المدني التي تمّص دم السـوري وتذله على أبوابها إذا ما ابتغى مساعدة ما يسدُّ بها رمق أطفاله.

بيروت عاصمة الثقافة. ترى المثقفين السـوريين في مقاهيها وفنادقها يتناقشـون ويتبحاثون عن وطنٍ ضاع من أيديهم، عن ثورة خانوها، ويبررون لأنفسـهم، دون أن يجدوا عملاً لأنفسـهم يسـددون بها أجرة المكان الذي ينامون فيه.

بيروت مدينة الفن. يبحث فيها الفنان السوري عن حفلة يغني فيها أو عن معرضٍ يقيمه دون أن يُستغل من تجار الفن في هذه المدينة.

بيروت مدينة السياسيين. لكن لا مكان للسوري فيها. الأحزاب المسيحية (الكتائـب، القـوات، التيار الوطني الحر) هؤلاء يمقتون السـوريين أكانوا ضد النظـام أو معـه، فما فعله الجيش السـوري بهـم لا زال عالقاً فـي ذاكرتهم، الأحزاب الشـيعية (حزب اللّه وحركة أمل) وأضف إليها الجزب السوري القومي الإجتماعي، إن كنت شبيحاً للنظام فأهلاً بك، وإلا فالقصاص. الأحزاب السنيّة (المسـتقبل، السـلفيون) إن كنت مع الثورة "الإسـلامية" أهلاً بك وإلا تجهّز للعقاب. الحزب الشـيوعي لا مكان له. التيار المدني الصغير جداً وغير المؤثر في السـاحة اللبنانيـة يرحبون بك كائناً من كنت. ثـم يأتيك أحدهم ويقول: لماذا تعيشون في حالة انفصام؟؟

بيروت مدينة من شاء من عباد اللّه، يأتيها سائحاً أو ساكناً أو طالباً للعلم، إلا السـوري الذي يقصدها ليُذل إما لانتمائه السياسي أو الديني أو الطبقي. بيروت قاسـية علينا نحن السـوريين، بيروت هي خيبتنا الثانية. بيروت خانتنا بعد أن فعلت دمشـق. بيروت لم تحتوينا ولـم تصهرنا في رجمها بل لفظتنا خارجها وكأنّنا مرضٌ مُعدٍ.

بيروت يا من حسبناكِ وطناً لنا بعد أن طُردنا من أرضنا، يا من ظننا فيك خيراً يا أخت الشـام، "لعنتي أبو ظنّنا"، يا من هواكِ ذلّنا ولا سبيل لوصالكِ. بيـروت يا جرحـاً مَا توقف نزيفه في قلبنا. بيروت إنّـا مددنا أيدينا فبترتِ لنا أيدينا.

بيروت يا نجمتنا، بيروت يا خيمتنا، بيروت يا خيبتنا.

شارع صفد | امتداد شارع لوبية، مخيم اليرموك

سوريّا، والمخيّم، والشهداء.. وأنا

■ إياد عاطف حياتله

عندما تكونُ فلسطينيّاً، فهذا يعني أنّ كلمة الحياد لا وجود لها مطلقاً في قاموس لغتك، وأنّك منحازٌ دائماً وأبداً للمظلومين والفقراء، وفوق كلّ هذا، فأنتَ منذ اليوم الأوّل لولادتك وحتّى رحيلك عن هذه الدنيا خُلقتَ وتكوّنتَ لتقفَ مع الثورة، أيّة ثورةٍ على الإطلاق، حتّى ولو حصلت في المرّيخ.

وعندما تكونُ فلسطينيّاً سوريّاً على وجه الخصوص، وابن مخيّم بالتحديد، يصبحُ مجرّد تفكيرك بأمرٍ كهذا ضرباً من الترف الخالي من أيّ معنى، فلا يخطرُ ذلك السؤال العبثيّ ببالك ولو لجزءٍ من الثانية، وأنت الذي لم تتردّد البتّة، وحسمتَ أمركَ منذ ما قبل ولادتكَ حتّى، تماماً في اللحظة التي أجبر بها أهلك على مغادرة قريتهم الجليليّة مشرّدين في بلاد الله الواسعة، من الشجرة إلى لوبية فعيلبون فبنت جبيل فعنجر فحارم فالضبعة فالخالدية فمخيّم العائدين في حمص، ليستقرّوا مؤخّراً في مخيّم اليرموك، المخيّم الفلسطيني على الأرض السوريّة الطيّبة، بين شعب أحبّهم وأحبّوه، وبادلوه مرّ الحياة قبل حلوها، الأمل والألم والواقع والحلم، وكلّ شيئ .. كلّ شيئ..

تولدُ في ليلةٍ شتائيّةٍ باردةٍ في بَرَكس مُشرع للريح والمطر في ثكنة خالد بن الوليد، (مخيّم العائدين في حمص)، فيكونُ أوّل هواء تتنشّقه رئتاكَ قادماً من بابا عمرو، وتكونُ أوّل صلاة جماعة تحضرها في جامع سيدنا خالد، عندما تأخذك جدّتك رضيعاً في لفّتكَ إلى رحابه إيفاءً لنذرٍ قديم، في مضافة جدّك تتطلّعُ محدّقاً في يده اليمنى وهي تعزفُ لحن الحياة على المهباج الذي كان هديّة البطن الحوراني من عائلتكم لكم، تتساءل – وأنت إبن سنواتٍ فقط – كيف لهذا اللاجئ الأعمى أن تضحك عيونه ويرقص جسده منتشياً وهو يحتضن قرميّة الخشب هذه بيد، ويدغدها باليد الأخرى، أيّة بصيرةٍ فتحت قلبه على ذلك لو لم يكن حرّاً؟!، هناكَ .. يكون (الحَمَار) بين المخيّم وبابا عمرو ملعب طفولتك ومدرج طيرانكَ نحو المستقبل، هناكَ .. يكون رنين القيود في يدي والدك في سجن البولوني أوّل ما يتشكّل في ذاكرتك عن معنى الحريّة والأسر، وما بين الخالديّة وباب الدريب وباب السباع والثكنة والشعّاس والساقية وقطينة وعاصي القصير وعين التنور والرستن، تمتزجُ فلسطينيّتك بسوريّتك وتتجذران سويّة في قلبك الصغير الكبير..

تكبرُ قليلاً، وتغادر حمص إلى دمشق، من مخيّم إلى مخيّم، تقتربُ من فلسطين أكثر، ولا تبتعدُ عن سوريّا، في مخيّم اليرموك لا يفاجئك تداخل الوطنين في واحد، الأرض الشاميّة تحتضن الشوارع المسمّاة بأسماء القرى والبلدات والمدن الفلسطينية، الشهداء السوريون والفلسطينيون يتعانقون على جدران المخيّم المتكئة على بعضها البعض، وجوه العجائز البلسميّة، وأيدي الختايرة الخشنة، وحكايات البلاد التي تتكرّر صباح مساء، قبل الطعام وبعده، الفدائيّون الذين يذهبون غرباً ولا يعودون، أغاني الثورة وقصائد الأرض..

تتعرّفُ أكثر على محيطك السوري المتشابك فلسطينيّاً، التضامن وشوامه الطيبين، بساتين يلدا ومشمشها وجوزها، الحجر الأسود وبحراته وآباره، القدم وقطاراتها، كفر سوسة ومسابحها، داريّا وأعنابها، المزّة وصبّارها، الشام وحميديّتها ومرجتها ومعرضها وصالحيّتها، المخيّمات الكشفيّة في عقربا والبويضة وبيت نايم، الربوة والسباحة في نهر برّدى، الأمويّ الذي يحملك صوت أذانه إلى الأقصى، ضريح صلاح الدين الذي تشمُّ في فنائه رائحة القدس العتيقة المعتّقة، كلّ ما يصادفك هنا له وجهان، سوريٌّ وفلسطينيّ .. شاميٌّ وجليليّ..

تكبرُ أكثر، فتفتحُ عينيك على مخيّمات وتجمّعات فلسطينيّة أخرى موزّعةٍ على المدن السوريّة الكبيرة، من حندرات في أقصى الشمال إلى الرمل على الساحل، إلى الرمدان على أطراف البادية، إلى مخيّم درعا في جنوب الجنوب، إلى خان الشيح الذي يبعد عدّة أميالٍ فقط عن سهل الحولة وبحيرة طبريّا، فتصبحُ هذه المخيّمات فلسطينك المؤقّتة بانتظار تحقيق فلسطينك المؤجّلة التي تبتعد في الواقع وتقترب في الحلم، هناك في المخيّم كنتَ تنام وتحلم بها، وعندما حملت المخيّم على ظهرك واغتربت بحثاً عن الرزق والحريّة، صرت تنام وتحلم أنّك نائمٌ به أولاً تحلم بفلسطين..

تكتشفُ متأخّراً ربّما أنّ المخيم لم يغادرك، ولا أنت غادرته أصلاً، فكلما وقعت قذيفة في حارة ما، تسارعُ إلى هناك مستذكراً تفاصيل البيوت، وكلّما سقط شهيدٌ في أحد الشوارع، يسبقك قلبك ليمسح الدمع عن عيون والدته أو ابنته، تحمله أضلاعك التي أنهكها صقيع الغربة عالياً لتشيّعه إلى مقبرة الشهداء، وفي آخر الليل، تنامُ على دمعةٍ، وتستيقظُ على قصيدة..

الشّهداءُ الفلسطينيّون
لَم يُخطّطوا ليموتوا هنا
فقد كانَ لديهم حُلمٌ آخر
يبدأ من زقاقِ المخيّم
ولا ينتهي في القدس
- أن يُقتلوا برصاص العدوّ الإسرائيلي
في معركة التحرير
على رُبا فلسطين
ومع ذلك
لم تختلف نهاياتهم كثيراً
فقد استشهدوا
برصاص العدوّ الإسرائيليّ
نفسه في معركة التحرير نفسها
ولكن
على رُبا سوريّا.

أحلام على متن يخت تائه

■ لبابة الهواري

على الشاطئ ما زال ينتظر.. عيناه تنظرا الأفق البعيد.. بين الخوف والتوجس ما زال يعد الساعات.. في انتظار قارب ينقله إلى المستقبل!..

بلال، شاب سوري.. تطوع لأشهر بالعمل المستمر في حملات الإغاثة.. ونتيجة لصعوبة الوضع دون دخل مستمر.. قرر العودة لحياته.. والبحث عن عمل.. صديقه المقيم في اليونان اقترح عليه السفر إلى اليونان.. ومن هناك إلى أوروبا.. أخبره أنه سيساعده في السفر، وأن الأمر يستحق قراراً مجنوناً كهذا..

بحث.. سأل.. استشار.. واعتمد أخيراً على فعلها.. تردد كثيراً إذ أن المبلغ المطلوب للسفر كبير جداً وهو لا يملك نصفه..

لكنه ضرب بعرض الحائط كل المصاعب، واستقرّ رأيه على السفر بعيداً عن كل من نصحه بالتريّث..

حزم أمتعته كما تقرر له في تاريخ معين، حمل بقية ذكريات التطوع، دفتر المذكرات، وبعض دعوات أمه، ونقوداً استدانها ليكمل المبلغ الناقص، ثم سافر إلى أقرب نقطة حدودية بحرية لليونان.

لم يكن يعرف أحداً هناك.. أحلامه كانت تنبئه أن المستقبل يكمن خلف البحر..

كان عليه الانتظار يومين كما الاتفاق ليكون الرحيل على متن يخت محترم يضمن لهم سلامة بدون غرق أو أن يصبحوا وجبة لقرش جائع!..

صباح يوم السفر استيقظ متفائلاً توجه للشاطئ قبل الموعد بمدة.. جلس ينتظر.. عندما قدم القبطان، أخبره أن الرحلة ستتأجل لأن الموج هائج.

حاول تقبل الأمر بشيء من الرضى، شعور بالختناق كاد سيقتله، تريث قليلاً.. ابتسم وعاد للفندق.. مساءً أخبره القبطان أن الرحلة ستكون بعد يومين..

لم يستطع إخفاء شعور الضيق، فمخططاته التي رسمها لم تكن تتضمن بياتاً في الفندق لأيام! مصاريف لم يكن يستطيع احتمالها..

بعد يومين.. أتاه صوت القبطان الأجش على الهاتف: لا رحلة اليوم، خفر السواحل منتشرون بكثرة! سننتظر بضعة أيام.

أغلق الهاتف.. ولعن وعودهم الكاذبة! لا حل آخر بيده سينتظر..

تكررت مرات التأجيل.. وتكررت الحجج.. تارة انحسار البحر.. انتشار الأمن.. إغلاق الطريق.. مرض القبطان.. إلى أن وصلوا إلى حجّة أكثر خبثاً.. وهي تعطل اليخت والحاجة لشراء يخت الآخر على حساب المسافرين!..

بلال الواصل لليأس بعد كل ما مر به من أيام الانتظار القاتل لمستقبل لا يعرف عنه شيئاً، قرر متابعة المجازفة ودفع المبلغ الذي طلبه منه القبطان وهو ألف يورو، بعد أن شجعه صديقه أن القبطان رجل ثقة.. وفي حالة حدوث أي شيء سيتكفل هو بإعادة المبلغ كاملاً.. وبقي في انتظار يخت المستقبل.

ثم.. تتابعت الحجج.. وطالت الأيام.. واختفى القبطان.. وباتت كل مساعي الوصول إليه شبه مفقودة! وانقطعت الاتصالات مع صديقه بعد شجار من بلال الذي أنهكه الانتظار واعتصاب أحلامه!..

دفع بلال ما تبقى معه لإنهاء إقامته في الفندق.. وجلس على البحر بيأس ومستقبل قاتم.. يرقب الأفق.. تفقد ثمن تذكرة العودة في جيبه.. وقام يجر أحلامه المسروقة عائداً لا يعرف إلى أين.. وبكل خيبة يردد: "صديقي والقبطان.. سرقوني".

لعل بلال حاله أحسن حظاً.. إذ انتهت قصته بسرقة المبلغ.. وبقي سليماً معافاً قادراً على رسم مستقبل وإن كان صعباً في ظل الدين الذي أخذ يفت عضده!..

لكن أحمد الشاب السوري المقيم في مصر كانت تجربته أسوأ.. يروي أصدقائه ما حدث معه عندما قرر السفر إلى إيطاليا بحراً.. لا يعرفون تفاصيل سفره.. فقد كان يخفي عنهم الكثير.. صديقه المقرب منه يعرف أنه دفع قرابة الألفي يورو لهذه السفرة، على متن قارب.. نعم قارب وليس يخت، كمهاجر غير شرعي إلى بلد المجد إيطاليا!..

ودع الجميع، أخفى نبأ سفره عن أهله الذين لا يزالون في سوريا، ترك رسالة مع صديقه في حالة حدوث مكروه، وركب القارب.. وانتهت القصة!..

لا أحد يعرف ماذا حدث بعد ذلك؛ فأيام الانتظار التي حددها أحمد لاتصاله انقضت منذ أسبوع! وخفر السواحل لم يروا أي مركب يعبر! ولم يعد أحمد!..

يغص صديقه بالدموع وهو يرى الرسالة أمامه على المكتب "لن أفتحها.. لا أريد افتراض أنه لن يعود"..

أحمد.. وبلال.. وغيرها الكثير من القصص لشباب خرج من سوريا تحت وطأة الحرب، فقر الحالة واليأس من الواقع دفعه للمجازفة بكل ما يملك.. بل وبما لا يملك.. فقط ليخرج مما هو فيه، يقامر على حياته بلعبة ربما سيدفع ثمنها ميتة بأسنان قرش أو بحضن بحر هائج!!..

وقادتهم أقدارهم لتجار دم وأحلام ومستقبل! يأخذون نقودهم ويرمونهم للمجهول.. في قارب لا يحمل أي مقومات أمان.. هو الأقرب للغرق من النجاة.

ويستغلون حاجة شباب يائس رأى الموت بكل أطيافه.. من قتل.. وذبح.. وتعذيب.. فقرروا أن يرونه الصنف الأخير.. وهو الموت غرقاً!!..

وبات خبر القوارب التي تحمل مهاجرين غير شرعيين سوريين منتشراً.. بكل غصة وألم.. وأحلام لم توصلهم للأمان!..

ساحة مظاهرات مدينة كفر نبل في إدلب

القذائف الاخيرة، قبل الحب

■ هالا نجاري

تداعيات القمر:

لـمّ تَكن أمواجُ البحر في هذه الليلةِ كعادتِها من ليالـي السهر، كانَ ضوءُ القَمر يسرّقي البحرَ عَطشَـهُ أكثر، وكنا نُخلَقُ من جديد، نتَخبط مع أمواجهِ، ويَهزُنا الشوقُ في أكتافِ غربتِنا.

كُنـتُ أمتزجُ ألماً وحباً، وكنت أنت الأجملُ من ضوءِ القمرِ..

لَمّ أكن أعتـادُ هذا الامتزاجَ بيـنَ عواطفي، ولمّ تَكـن نسماتـكَ عابرةً وإنما كـانَ إختراقُهـا أصعبُ من قذيفةٍ غادرة، استقرت ليلتها داخلَ فكري، شتت كلَّ ما جمعتهُ طـوالَ سنيني، كبلتني وذجتني داخلَ زنزانتكَ، أسيرُ داخـلَ جدرانها.. وأمزجُ عطـركَ داخلَ أنفاسي.. لتبقى روحي تتصّعد معكَ إلى السماء..

إلى السماءِ أخرجُ في ليلتي الثانية وأجلسُ مع من تـركَ لي مـا تبقى منّ الحيـاة. أحدثهم عـن وطنٍ كانَ وطـنٍ وعن ما فعله السفهاء منـا. أحدثهم عن أولادهم الذيـن يَركضونَ أمامي كـل صباح، ويسرقـونَ أزهارَ الياسمين من سياجِ عمرنا.

يوزعـونَ أغصانَ الزيتونِ. ويرسمـونَ أملهم على أزقةِ شوارعنا.

يَخطّـونَ علـى أسرتهم عدد الأيـام التي غبتم بها عنهم.. ويمشـونَ بحذرٍ لأن القـدرَ أخبرَهم أنكم تحتَ ارضنا.. يمشـونَ بحذرٍ لأنهم يخافـونَ إيقاظ سباتكم.. يمشونَ بحذرٍ لأنهم ضَاعوا مع أرصفتهم.

وأحدثهـم عن أرضنا وما تبقى منهـا.. عن دمائهم التـي هدرت فـي سبيـلِ الظلـمِ والقهرِ ومـا ظهرَ من تعسفٍ جديدٍ..

وأقـولُ لهم: أأبكي علـى حُزني عليكـم أمّ أبكي على وجودي هنا؟؟ ومازلتُ أنتظرُ جوابهم..

أطفالنا في الصباح:

نساءً ورجالاً وأطفالاً، وأكياسهم على الرأسِ تترنحُ بها ذاتَ اليمين والشمال..

أطفـالاً لا يرتـدونَ فـي أرجلهـم إلا مـا تُسندُ به القـدم، ما يحميها من حِصى الشـارع.. حرارةُ الشـمسِ فـوقَ الرأس تكـادُ تحطّ من أبدانهم أرضـاً.. ويحملونَ معهم أكياسَ الطعام والخضار..

يتحركونَ داخلَ حدود الوطن ذهاباً وإياباً..

يسرعـونَ فـي خطاهم فقطٍ كـانَ الطـرف الآخرِ مليـاءٌ بالأعمـال لديهـم، ويحملُ لهـم الفـرحَ ومتعةَ الوصول..

أمـا هو فقط كـان في العاشرةِ مـن العمر تقريباً، يحمـلُ فوقَ كتفـهِ حقيبةَ سفرٍ كبيـرةٍ يَعجزُ الرجالُ عن حملها..

كـانَ لونُ وجهه أحمر كلونِ دمّ الشـهيد، كانَ لونُ يديـه كلونِ شعرِ أمهِ الصغيرة، كـانَ يتصببُ عرقاً في كلِّ خطوةٍ وكانَ قَوياً أكثرَ من ألف رجلٍ..

كـانَ رِجلاً صغيراً في كلِّ تفاصيـلِ الرجال وينظرُ إليَّ ويكملُ في مسيره عندَ كلِّ مرورٍ.

يصـلُ بما يحملُ إلى آخرِ المعبـرِ، يضعُها مسرعاً، ويكملُ ليحملَ مـن الطرفِ الآخرِ أكياسـاً أثقل.. ليعودَ بها..

وفي كلِّ مرةٍ يأتي بها قدّ كانَ يغسلُ رأسه بالمياه التي كانت على جانبِ الحاجزِ.

لم أعلم إن كان يغسلُ بها ألمهُ ووجعهُ الثقيل أمّ أنه يغسلُ الحياةَ وشقائقها..

ويكملُ.. ويقولُ لصديقه الآخر الذي يرافقهُ عكساً في ذلـكَ الطريق: قديـش جمعت اليـوم؟؟، (واللّه صار معي 100 ليرة وليرة تركي وانت..؟)، ويجيبهُ بابتسامته النقية (انا لسا بس 50)..

كانت الجملة الوحيدة التي سمعتها من ذلك الطفل الـذي كانَ يعمل بنقل الحقائـبِ لكي يكملَ ما تبقى من مستقبله.

أمـا أنا فأجلـس في طـرف المعبر وأتأمـلُ وجنتيه ويديه وأبصق على زمنٍ لم يعد به الطفل طفلاً..

سوريتي:

لسنـا من أصـولِ الرمـالِ التي تتغيـر حسب مرور الأمواج، وتُمسَحُ عندما يركضُ البحر على أجسادنا..

نحنُ مـن أصنـافِ الحجـارةِ مثل الياقـوت اللامع والأسود القوي..

نحنُ مثل جبلِ الجليد الذي لا يُكسَر..

نحنُ مثل غيوم السماء تستطيعُ أن تَستُرَ القمر والشمس..

نحنُ مثل لهيبِ النار يَحرقُ عندما يغضب..

نحنُ مثل الأرضِ وتلك الأرضُ مثلنا..

أصـرخ وأكرر في إعادة هـذه الكلمات، وإذ بها تطل من نافذة غرفتي.. تضحكُ على كلماتي..

وتهمسَ ألست من أهل سوريا..

ثارَ غضبي، وأجبتها لم تضحكين؟؟، نعم إنني ابن الأبيـةَ.. فجلسـت على طاولتي وقالت: ألـم تتعب يا ابن الشـامِ العديةَ؟؟، قلـت لا واللّه لن أهدأ حتـى لو وافتني المنيةَ..

وصرختُ وصرختُ لماذا تتركونا نموتُ وتكسرونَ من همتنا القويةَ..

فأكملت هي أنت مجنـون وابن غبيةَ، تقاتلُ ظالماً يدمرُ بوحشيةَ..

قلت لا يا سيدتي أنا قلبُ الانسانيةَ..

وعاشقُ الحريةَ..

ألم اخبركِ بدايةً أني سوري الهويةَ..

ويبقى الحب:

و تتسللُ إلى جسدي ليلاً.. تختلسُ النظرة وتسرق بها العمرَ مني..

تنفخُ روحاً داخل روحي.. وتشـعلُ عشـقاً.. توقدُ ثورة..

كأنني أتحسسُ طعم الرصاص في رأسي يشـغلُ فكري بتفاصيلٍ أصبحت ترسم لي الحياة..

كأنني أعزفُ على اوتارِ أملٍ جديد..

كأنني أدقُ على طبولِ الأرضِ حباً وولهاً..

كأنني أخلقُ من جديدٍ وأبعثُ داخل نفسٍ آخر..

هو حبٌ لعيناك، هـو الغرقُ في أبسطِ التفاصيلِ التي تشدني إليكِ..

و يتعبُ قلبي عندما يتدفق في نهركِ..

يتعبُ عندما تلامسه اصابعك..

يتعبُ عندما يتطورُ في أحداثِ العشقِ معك..

و تتغلغـلُ داخلـي وتسري فـي عروقـي وتتداعب روحي، بلّ أكثر: تدقُ في كياني.

هل كانَ يكفي أن نموتَ حباً، وتهزني نسماتك كل لحظة..

يكتبها:

حرب أهلية

بينما كان أفراد العائلة يتابعون آخر ما وصلت إليه "الضربة الأمريكية "
ظهرت نجوى قاسم في برنامج "حدث اليوم" مرتدية تنورة بيضاء
لا فوق الركبة ولا تحتها بل هي تلعب مع الركبة، حلوة شقراء
شقراء لدرجة أنك تظنها "شبيحة" وتضع حمرة حمراء باذخة، أجزم
أن لـو جمعنـا كل أقلام الحمرا مـن بنات منبج ـ تلك الأقـلام التي تُباع على البسطات أو في محلات " أي قطعة بـ عشرة " ـ لن تشتري جرّة من القلم
الذي خطّ شـفاهها، وكانت نجوى تميس وتتغندر في الاسـتيديو وتتكلم عن الضربة الامريكية وفجأة يظهر خبر عاجل أكل جزءاً مهماً من ساقي الشقراء
كان أثقل دماً من أخ الحبيبة الصغير الذي يُقاطع كل القبلات المسترقة.
لأول مرة أدرك تفاهة الأخبار العاجلة وكم هي متطفلة!
- عمرها فوق الخمسين، مبين من رقبتها: قالت أختي
احتجت أختي الأكبر وقالت: لأ عمرها تحت الخمسين..
ففزتُ أنا من مضطجعي وصرخت: يا سيدي تحت الأربعين وانتو ما تفهمو.
فردت أختي التي ابتدأت الحديث بشدة:
- نحنا مانفهم؟! انت الي ماتفهم لو تفهم كان هلأ شـلت سـلاحك والتحقت بالجيش الحر
ـ أصلا لأنها شقرا وأحلى منك سويتي عمرها فوق الحمسين
فبدا الارتباك واضحا على أختي من هذه الهجمة التي أضعفت موقعها
ـ كلو مكياج وصبغة وعناية زائدة ومصاري وعز ولا قصف ولا مخابرات ولا مقطوعة عنها المي ولا الكهربا ويمكن ماتغسل وجها بالمي العادية
اللّه يعلم شو بتستخدم اشكال وألوان، خليها تعيش في منبج مع القاعدة ومع طيارات بشار ومعاك انت وشوف شكلها شلون رح يصير.
ـ عم تشبهيني بـ بشار وداعش وليك؟!!!!!!
وهممت لأشدها من شعرها نافثاً غضبي الطارئ..
فإذا بإمي تدخل فجأة إلى الغرفة:
ـ شبيكم ليش هالصوت؟
فأنبرت أختي في بكاء حاد، استغليتهُ لأقدم لأمي روايتي المنحازة للحدث
نظرت أمي إلى الشاشة وحسمت المعركة بقولها:
بس انتا وياها! هذي الشقرا الزينة عمرها 25 سنة وكل واحد على شغلو..
انتهت الحرب بإنفضاضنا أنا وأختيّ فيما أشعلت أمي سيجارة متأملة
ومازالت نجوى قاسم تتمشى على الشاشة تواصل حديثها عن الضربة الأمريكية غير مكترثة بحروبنا الهامشية.

حكـايات الجـدران

فـي بلدة وقف عندها المسافـر ليقتات بالخبز والمـاء منها، وبينما كان يراقب حركة سكانها في السوق، مر كهل أجعد الوجه وقبيح القلب ذو رداء أسود اللـون وألقى سحراً جعل الحزن والأسى منثورين في كل مكان هناك. فأصبح الجميع يختنقون حزناً وألماً بينما يضحك هو وحيداً. ولكن لم يمـضِ من الوقت الكثير حين ظهرت تلك الفتاة الصغيرة ذات الوجنتين الحمراوين والعينين السوداوين والشـعر القصير المجعد. ثم بـدأت تخط بأناملهـا حكايات على الجدران جعلت مـن صخورها تدندن وتغنـي كل ما كتب عليهـا. لقد غنت الجدران ألحاناً استذكر بها الناس طيبهـم فأمست قلوبهم مبتهجة مسرورة. ودندنت بكلمات أشارت لهم بمـا سيكسبون بطيّب العمل فأمست وجوههم تشـرق نوراً. وكم كان عجـب المسافر كبيـراً مما فعلته تلـك الفتاة، فلم يكن يـدرك يوماً أن لحسن الكلام والقول ذاك الأثر البهي الرغيد حين يكون صادقاً.

سوريا / ريف حلب / 2012

نصوص وتصوير: باسل حسو

دقق النص: ميمونة العمار

كاريكاتير العدد | الفنان عبد المهيمن بدوي

هُنا دِمَشق

■ سيامند حسين

(يوميات ومشاهدات) 20 أيلول 2013

لا مبالاة

قبل أن يسلك الموكب المتواضع الطريق الحلزونيّ المُمسك بأحد الجبال المتناثرة في ضيافة الجهات الأربع، عادت السيارات العسكرية أدراجها، في حين أكملت السيارة البيضاء سيرها، إلى أن توقفت بعد حوالي أربعين دقيقة، عند نهاية الطريق المعبّد، على ارتفاع ألف متر تقريباً، حيث يستقرّ مبنىً مهجورٌ كان مَصيفاً فيما مضى. ترجل الرجال الخمسة، واستنشقوا الهواء المشبعَ بأريج العَرعَر والصنوبر. أمامهم انتصبت لافتة مُثلثة الشكل، مُعوجّة، عليها رسمٌ يعني في معجم اللافتات الطُرقية: خطر انهيار الصخور. على اليسار كان ثمّة درب ضيّق يصعدُ إلى القمة ملتفاً إلى الجهة الخلفية، حيث تستريح في الأسفل، قرية سلمى، إحدى قرى جبل الأكراد الوديعة.

بقي السائق وحده إلى جانب السيارة التي ركنَها بالقرب من حافة الطريق المُشرفِ على هاويةٍ، راحت تيجانُ الأشجار المتلاصقة تُوطّدُ ألفتها البصريّة. لقد طلب من الضابط السماح له بالبقاء كي يتحدث بالهاتف إلى زوجته التي وضعت مولدهما الأول في الصباح، ولم يستطع زيارتها في المستشفى. كان الشاب رقيباً متطوعاً، وابنَ عمّةِ الضابط الرفيع، الذي أوكِل إليه واجبُ مرافقةِ أحد الخبراء الإستراتيجيين المُرسلين إلى جبال الساحل في مهمّة من العاصمة.

لم يعد يأمن الضبّاطُ المُهمّون أحداً، حتى وإن كان ممن خدم عندهم بوفاء سنوات طويلة، وذلك بعد أن كثُرت الخياناتُ والاختراقات في صفوفهم، فبات كل واحد يُعيّن فرداً مُقرباً من أفراد عائلته، بحثاً عن ثقةٍ ندُرت في زمن الفساد الجهنّمي المتحالفِ مع الحرب.

في المقدمة وقف العميد والضابط المساعد، وفي الوسط بينهما وقف الخبير. خلفهم بأمتار انتظر المرافقُ الشخصيّ للخبير. كان جنديّاً مُلتحياً، ملامحه صارمة وكأنها اشتُقّت من حوافِ الصخور، طوال الطريق لم ينطق بكلمة، كان أحياناً يردّ همساً على مكالمات تصله عبر جهاز اللاسلكي. تناقلَ المسؤولون الثلاثة المنظارَ الصغير متوجّهين بأنظارهم إلى الجزء الشمالي من القرية، التي ظهرت مستغرقة بين السفوح المتعرّجة، هناك حيث مجموعةٌ هائلة من العيون انفتحت على دخان حرائقَ كانت تنشبُ مُتجوّلة كالعدوى.

- «هل تريَان؟..». قال العميد بصوت جادٍ خرج على دفعتين من حنجرته المُتشنّجة، وهو يمدّ المنظار إلى الخبير.

رفع الرجل الغريب المنظارَ إلى عينيه وحدّق مُطيلاً وهو يُدير رأسه ميليمترات يميناً ويساراً، ببطءٍ شديدٍ ألهبَ التوترِ في قلب الضابطين. أطال الغريب في تحديقه كثيراً، إلى حدّ جعل الرجلين في حالة اضطراب مُعلنة. شعرا بضيقٍ عنيفٍ، أخذ يطرقُ صدغيهما مُوشكاً على الخروج صراخاً أو عويلاً.

نظرا إلى بعضهما البعض فاقدَي الصبر تماماً، ثم التفتا إلى الخلف ليَرا الحارس صامتاً، يقفُ ببرودةٍ أكملت تمزيق أعصابهما، فنطقا سوية:

- «سيدي!...».

أنزل الخبير بحركةٍ عصبيّة كلتا يديه، ودون أن يلتفت لأيّ منهما، قال بلُغته:

- «سننتظر..».

تنفس الضابطان عميقاً، ولم ينبسا بحرفٍ. بعد قليل تجرّأ العميد:

- «لكن يجب أن...»، قاطعه الخبير مُحتدّاً، وقد توجّه إلى الضابط المساعد بنظرةٍ كادت تقفزُ وراءها عيناه الغائرتان:

- «ترجم له ما قلت»، وإذْ لمس في الحال تأخراً في استجابة الرجل، عاجله بجملة أخرى نفخها من بين أسنانه مُهدّداً: «هل سمعتني؟».

هزّ الرجل رأسه كولدٍ مُذنب، وقال على الفور، ماسحاً بأصبعيه العرق عن حاجبيه، وهو يميل بجذعه إلى الخلف قاصداً عينيّ معلّمه: «يأمرُ سيادته أن ننتظر».

كانت الريحُ بدأت تخفق قوياً على ذلك الارتفاع المكشوف، وخلال الوقتِ القصير الذي مرّ كانت قد أعادت توزيع السُحب المنخفضة فوق المنطقة، لتطوّق الرؤية بظلٍ كثيف. تغيّرَ سريع في الجوّ، كنزوةٍ استدان الصيفُ المُنهكُ ثمنها من خريفٍ متقدّم على مهملٍ خلف نهاراتِ أيلول.

في مكانه كان السائق يستند بجسمه إلى مؤخرة السيارة، الريحُ تضربُ جانباً نصفَ وجههِ، وتصفرُ بنعومةٍ في أذنه كلمّا حرّك رأسه قليلاً. للحظةٍ سمع ضجيجاً استمرّ لثوانٍ قبل أن يخبوَ رقيقاً. لم يهتمّ للأمر وتابع شغلَ ذهنه بمحاولة تقدير المسافة الفاصلة بين أبراج الكهرباء الضخمة التي كانت تقف في السفح المقابل على ساقين عريضتين كرجال ضخمين، رؤوسهم صغيرة، وأيديهم مقيّدة بحبال مُتدلّية ثقيلة.

في تلك الأثناء رنّ هاتفه. كان متلهفاً لصوتٍ ما كذلك الرنين يُخلخل رتابةَ الهبوب الذي ذرّتهُ الريح طبولاً رخيمة في المكان. كانت أمّه، أرادت أن تعرف فيما إذا كان قريباً من البيت، فيأتي لتناول الغداء. قال لها إنّه ضجرٌ كالعادة، في مهمةٍ خاصّة، وإنه لن يستطيع العودة قبل المساء.

بعد أن أنهى المكالمة، وأعاد الجهاز إلى جيب بنطاله، داهمه شعورٌ دخيلٌ ظنّ أنه شعور بالوحدة، وامتزجَ بلعاب أساله ذِكرُ اللحم المشويّ الذي سيُفرش بعد قليل على مائدة الصالون الرخامية. أيضاً، فإن المشهد الخريفيّ الذي اجتاح ساعة الظهيرة المبكرة تلك، قد زاد من شعوره بالجوع بشكل ملحوظ.

صعد السيارة، أغلق الباب والنوافذ، وأدار الراديو. كان لا بدّ له أن ينظر إلى صورة الجنرال الكبير، المُلصقة من الداخل على زجاج السيارة الأمامي. لم يستطع أن يُقاوم ابتسامة كانت تندفعُ بقوةٍ من أحشائه المُتضوّرة. وضع نظاراته الشمسيّة، ومضى عائداً إلى البيت يُردّد أغنية شعبيّة كانت تبثها الإذاعة.

شهداء سوريا

مجموع الشهداء (73776)

دمشق: 5522
ريف دمشق: 17005
حمص: 11014
درعا: 6465
إدلب: 8588
حلب: 11959
دير الزور: 4562
الرقة: 912
السويداء: 55
حماة: 5172
اللاذقية: 858
طرطوس: 309
الحسكة: 536
القنيطرة: 387

5572 عدد الأطفال الذكور
2535 عدد الأطفال الإناث
5228 عدد الإناث
18462 عدد العسكريين
55314 عدد المدنيين

المصدر: مركز توثيق الانتهاكات في سوريا 21 / 9 / 2013
http://www.vdc-sy.info/

تمت طباعة وتوزيع هذا العدد من قبل مطبعة سمارت ضمن مشروع دعم الإعلام السوري الحر